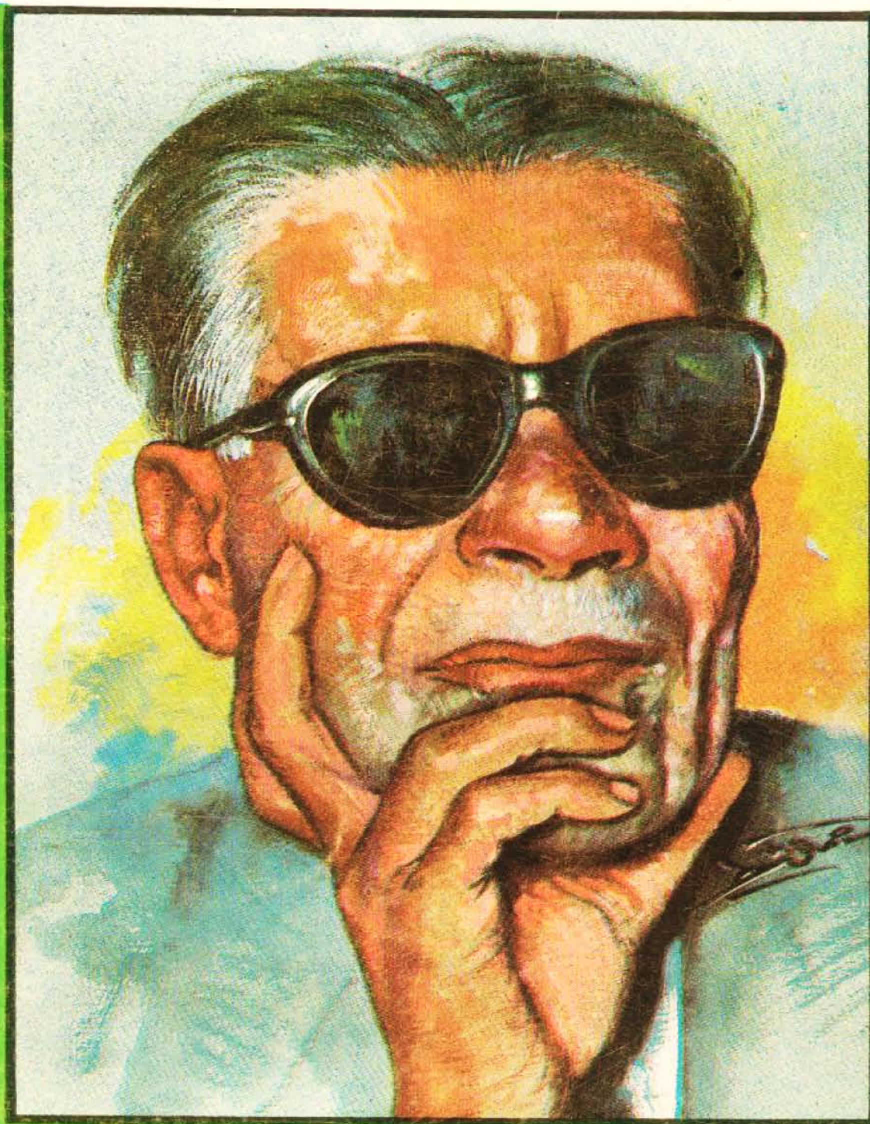
طه حسين

دعاء الكروان

فاضل



دار المعارف

طه حسين

دعاء الكروان

الطبعة التاسعة والعشرون

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حسين ، طه ، ١٨٩٨ -١٩٧٣ .
دعاء الكروان .
تأليف : طه حسين .
- ط ٢٩ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٨) .
١٦٠ص ؛ ٢٠سم .
تدمك : ١ - ٧٢٢١ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١- القصص العربية .
أ) العنوان .

ديوى ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٨١٠ ١/٢٠٠٨/٦٠

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إلى صديقى الأستاذ الكبير عباس محمود العقــاد

سيدى الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً فى الشعر العربى الحديث ، فهل تأذن فى أن أتخذ له عشًّا متواضعاً فى النثر العربى الحديث ، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص .

طه حسين

اتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدى إلى هذه القصيدة الرائعة فضلا منه أتقبله فخوراً شكوراً . وأكره أن أوثر به نفسي من دون الذين يحبون الشعر الرفيع بل أكره أن يحملني التواضع الكاذب على إخفاء هذه المكرمة التي إن صورت شيئاً فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاء هذا الكرَوان الذى
خَلَّدْتَهُ فى مسمع الدهرِ
له صَدًى فى القلب والفكر مِن
أشهى متاع القلب والفكرِ
لـكنه مُشجٍ بترجيعـه
لمـا جَرى فى ذلك القفـرِ
إذ تسكنُ البيداء وَهْناً فما
يَنبضُ إلاَّ مُهجُ السفـرِ

والليلُ في التيه السحيق المدى
يُطبقُ جفنيــه على وِزْرِ

والطــائرُ المرْتاعُ في جَوِّه
يُنذرُ بالمأساة في ذُعــرِ

يُرِنُّ إرْنانَ سهامٍ رَمَتْ
حيثُ رَمَتْ بالشُّعَلِ الحُمرِ

أسالَ أدمُعي خَطبٌ مَطلولة
مقتــولة في زَهْرة العمرِ

جنى عليهــا واهمٌ أنّه
يَثأرُ للعــرض وللطهــرِ

وخامرتني حسرةٌ خامــرتْ
شُهودَ ذاك المصرَعِ النُّكرِ

أليس للأرواح في بَثِّهــا
أواصرٌ من حيث لا تدرى

جوهرُهــا فَردٌ وإحساسها
مُشترَكٌ في النفع والضُّرِّ

حادثة في ريف مصرٍ جرتْ
ومثلها في الريف كم يجرِى

قصّتْ علينا قصصًا شائقاً
فى كَلِمٍ أنقى من القَطْرِ

مسرودةٌ سرداً على صفوِه
أفْعل فى النفس من الخمرِ

يا لغةَ العُرب التى كاشفتْ
طــهَ بما صانتْ من السرِّ

من أىّ رَوْضٍ يُجتنَى مثلُ ما
جنَــاهُ من أزهارك النُّضْرِ

من أىّ بحرٍ والمُنى درُّهُ
يُصادُ ما صادَ من الدرِّ

من أىّ تبرٍ فى غوالى الحلَى
يُصَاغُ ما صاغ من التبرِ

آياتُ طــهَ نزلتْ بالهدى
فيمَ استعارت فتنة السِّحرِ

أحْدَثُ ما جاءتْ به طُرْفَةٌ
بديعــةٌ فى أدب العصرِ

جلتْ خيالَ الشِّعر فى صُورة
أغارتِ الشعــرَ من النثرِ

١-1

لم يكن يقدّر أنى سألقاه قائمة باسمة حين أقبل إلىّ فى ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكد يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصى ماثلا فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح حتى أخذه شىء من الذعر ، فتراجع خطوات ثم قال فى صوت أبيض جعل يأخذ صوته الطبيعى قليلا قليلا : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان ينبغى لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما يدرينى لعله يحتاج إلى شىء . قال وقد عاد إلى ثباته وهدوء نفسه واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أرى من سبقك فى خدمتى ، وكنت أقدّر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد ؛ فلست أدرى ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات . قلت : قد أرحت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعتُ خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ، فليأمر سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلىّ يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكنى تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمرك أن تتبعيه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى إثره .

* * *

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقدمك وأنتظر نداءك ؛ وما كان ينبغى لى أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكثر من عشرين عاماً !

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما أحبّ صوتك إلى نفسى إذا جثم الليل ، وهدأ الكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح فى هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح ليذكّرنى روح هذه الأخت التى شهدتَ مصرعها معى فى تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفى ذلك الفضاء العريض الذى لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ! ادن منى إن كان من أخلاقك الدنو، وأنَسْ إلىّ إن كان من خصالك الأنس إلى الناس ، واسمع منى وتحدث إلىّ ، وهلم نذكر تلك المأساة التى شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرّها عن تلك النفس الزكية التى أزهقت ، وعن هذا الدم البرىء الذى سفك .

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات تردّدت فى ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق فى تلك الحفرة التى أعدت له إعداداً ، ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة فى السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها فى صمت عميق ، ورجل متقدم فى السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصبّ عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتنحى قليلا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هلُمَّ فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تمّ العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثأر لهذه الفتاة التى غودرت فى هذا الفضاء ، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر ، ليكون فى ذكرنا إياها وفاءٌ لهذه النفس التى أزهقت ، ولهذا الدم الذى سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم وردّ الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التى ما زالت تطلب الرى حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها .

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ! إنا لنلتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث ، أفتدعنى أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

2-٢

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغنى منه شىء ، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، واطمأن من حولى كل شىء ، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ

نفسي بالهدوء لألائم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولى فى الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عينى إلى المرآة أمامى وأثبتها فى أديمها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلىّ بصورة إلاّ تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رُواء ونضرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة هذه المرآة الجامدة الهامدة التى لا تحسّ شيئاً ولا تشعر بشىء ولا تعرب عن شىء وإنى لأرى صورتى مرّات ومرّات فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون !

لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلىّ فتطيل النظر إلىّ قليلا ، ثم تعود إلىّ مرة أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتى فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسى ، وأمشى فى غرفتى لحظة غير قصيرة ، أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا مَعجبةً به ولا مكبرةً له ، وإنما أسأل نفسى : أأنا صاحبة هذا كله ؟ أأنا المالكة لهذا كله ؟ أأنا صاحبة هذه الصورة التى تردّها إلىّ المرآة والتى كانت ترمقها العيون معجبةً حين كنت أتناول الشاى فى بعض مشاربه عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدى إلى زرّ كهربائى قريب ، فلا أكاد أمسه حتى يطرقَ الباب ، ولا أكاد أرفع صوتى بالإذن حتى تدخل علىّ خادم وضيئة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدّم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعها حتى آذن لها بالنوم .

ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسى روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه الأطيار التى تحلم فى ثنايا الغصون . وكل هذا لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد ، ولا يزاحمنى عليه أحد ، أستطيع أن أعبث به إن شئت ، ومتى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألنى أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت فى نفسى صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ؛ لأنى لا ألبث ان أرى صورتى منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بائسة يائسة ، قد شوّه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيفاً من الدمامة والقبح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتى كان يتحدث بها منذ حين إلىّ هذا الطائر العزيز .

إنّ فى أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسى حديثاً ما كان يمكن ولا ينتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة ، والتى تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف فى الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحدرت بها وبأختها امرأة من

أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبث فى أطراف الأرض الخصبة مما يلى الصحراء الغربية أو مما يلى هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأةً بدوية ريفية ، تقيم فى قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتى لا يستقر أهلها فيها إلا ريثما يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يُقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يمضون أمامهم مضيًّا بطيئاً ، ينتقلون فى أناة ومهل من مكان إلى إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدِّى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتفرها فى الزمن القديم . فإذا أتيح لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحتفظ ببداوته ، وأكثرهم يفنى فى طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابى وابنتيها فى قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ؛ فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يُميلون الألف قليلا ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلاّ

أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقيلاً ، مُحفظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتيها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمنا تنتسب إليها . ولكن أبانا لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زيرَ نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم . وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنّا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها فى ذات نفسها ــ فكم حرّقتها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة ــ وتشفق منها على زوجها هذا الماجن ؛ فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهيئ لنفسه عداوات خطرة فى كل مكان بإلحاحه فى المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتيها ومستقبلهما وآمالهما فى العيش الهنيء .

وإنها لفى ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة ، إذ جاءها النبأ بأن زوجها قد صُرع . ثم يستبين الأمر قليلا قليلا ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهواته الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتيها التعيستين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكره مكانهن منها ، وتنفيهن عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض

الريف يلتمسن حياتهن فيها بائسات شقيات ، ليس لهن سند يعتمدن عليه ، ولا ركن يأوين إليه ؛ وإنما هى امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطمع فيها الناس ويغرى بها أصحاب المجون ، وصبيتان بائستان لا تكادان تحسنان شيئاً.

والخطوب تنتقل بهن من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقين بعض اللين هنا ، ويلقين بعض الشدّة هناك ، ولا تستقر بهن الأرض فى أى حال ، حتى ينتهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتى تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضى فيها هذا الشىء المروع المخيف الغريب الذى يبعث فى الجو شرراً وناراً ، وصوتاً ضخماً ، وصفيراً عالياً نحيفاً ، والذى يسمونه القطار ، الذى يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام فى أكثر الأحيان .

هنالك فى طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيتين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فآواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولابنتيها حجرة ضيقة حقيرة قذرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجرها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتمسى حياتك وحياة ابنتيك فى بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون فى الزرع والحرث ، وإنما يعملون فى خدمة الحكومة ، منهم من يخدم فى معامل السكر ، ومنهم من يخدم فى المركز ، ومنهم من يخدم فى المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الرى ، ومنهم مهندس الطرق ؛ ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، فى هذه الأمتعة

والعروض التى لاتأتى من الريف ولا تصنع فى المدينة ، وإنما تأتى من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما ننطق ولا يعيشون كما نعيش .

عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها فى المدينة وفى القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون فى بيوتهم عيشة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الذرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون فى أطباق النحاس . وإنما يأكلون فى أطباق من الخزف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات فى هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة فى بيوتهم لينة ناعمة ؛ فالتمسى لنفسك ولابنتيك بعض العمل فى بعض هذه البيوت .

قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمى لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعدها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تُعرَض الإماء على السادة .

ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا فى بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، ونلتقى آخر الأسبوع ، فنقضى ليلة سعيدة رضية فى حجرتنا تلك القذرة الحقيرة ، قد حملت كل منا ما أتيح لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونتحدث عن أهلنا وقريتنا ، ثم عن سادتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا فى نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل فى بيوت التجار والموظفين .

٣-3

وكنت أحسن الثلاث حظًا وأيمنهن طالعاً ؛ فقد قدر لى أن أخدم فى بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتى غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسى ، ولكنى لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفتُ أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربنى فى السن ، ولعلها كانت أكبر منى قليلا .

كنت أرافقها فى اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها ، وأرافقها حين يأتى المعلم ليلقى عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها فى شىء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتنى فى لعبها ، واختصتنى بأحاديثها وآثرتنى بأسرارها ، ولم تبخل علىّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقد لتشترى به الحلوى .

وما هى إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تنكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تذعن له بعد حين ؛ وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع علىّ فيقرب ما بينها

وبينى من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرآة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هى لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هى لغة أهل الريف من « بنى وركان » . وكنت أقلد فى نفسى لغة خديجة فأحسنها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فرُدعتُ عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزينى ويردنى إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألق فيهما بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل فى بيت موظف من موظفى الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل فى بيت مهندس الرى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً فى دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نضرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفى ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختى تشبّ مسرعة ، ويستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من

ريفها المتبدى ، ريفية بدوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب. ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفى ذات يوم التقينا آخر النهار فى حجرتنا تلك الحقيرة القذرة ، وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أمى وأختى من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمّنا كانت صارمة حازمة ملحّة فى الصرامة والحزم ، لا تغير من عادتها شيئاً ، فكنا نلتقى آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنت أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعيم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا ابتساماً ، ولم أر بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين كئيبين مظلمين ، وخيل إلىّ أنى أرى دموعاً تضطرب فى عينى أمّنا ولا تستطيع أن تنحدر . وهممت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختى عنى إعراضاً ، وأشارت إلىّ أمى أن لا تسألى .

وقضينا وقتاً طويلا ثقيلا فى هذا الهم الممض الذى لم أكن أفهمه ولا أتبين له مصدراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمّنا فوقعت فى قلبى موقع الصاعقة ، ولقيتها أختى بوجوم غريب ، رفعت عينيها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمّنا : إذا كان الغد فسنرتحل عن المدينة المشئومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن أناقش وأجادل ، ولكن أمّنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم ، فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .

وذكرتُ ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن الفاجر . ذكرت ما حرّق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ، وما روّع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذى ألم بها فهدّها هدًّا حين جاءها النبأ بأن زوجها قد صُرع ، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع .

ثم ذكرت هذه الآلام التى لا حد لها ، والتى غمرتها كما يغمر الماء الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفتها مع ابنتيها من الأرض .

ذكرتُ هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أى ليلة قضيت ساهرة حائرة ثائرة ، لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح نهضت أمّنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟ قالت فى صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمى فسنرحل نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذينى لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإنما هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .

قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المركز ؟ أفثمّ تعلقت بك وكرهت فراقك يُخلِّ بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل .

وما هى إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،

وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

٤ - 4

وينتهى إلىّ صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح فى نوم غير عميق ، وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثّل لى خديجة وهى تلعب وتدعونى إلى أن أشاركها فى اللعب . وتمثّل لى سيدة البيت وهى تأمر وتنهى ، وتصعد وتهبط ، وتذهب فى تدبير بيتها وتجىء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون ، ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتوفرون على خدمته ، كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثّل لى أموراً كثيراً مما كنت أراه فى ذلك العهد السعيد القريب . ولكن صوت الطائر العزيز يبلغنى فيخرجنى من هذا النوم الحلو إلى يقظة مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلظ المضجع وخشونة الفراش . وأين يقع هذا الوطاء الخشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ، من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذى كان يلقى لى غير بعيد من سرير خديجة فى تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت أننا ننام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف وإنما تظللنا السماء ، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذى

َحان يترقرق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .

نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكدودات آخر النهار ، نجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح ، لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتيها بشيء : حتى إذا طال علينا الصمت ، وشقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمُّنا : ما أظن أننا نستطيع أن ننفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته مفتوحاً لكل غريب طارق بليل أو بنهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ، ومضت متباطئة ومضينا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة ، لم تسأل عنها ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . فلما بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمّنا إلى الشيخ الوقور وقالت في صوت هادئ متزن : غريبات قد طرقن القرية في هذه الساعة المتأخرة من النهار فآونا ياعمدة حتى يُسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال : خذ هؤلاء النسوة إلى دار الضيافة ومُرْ بإكرام مثواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة : فإذا بناء متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا أقمن هنا حتى يأتيكن الطعام .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف

وخدم ، قد اختلط بعضهن ببعض فكأنهن جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأمسينا وكأننا منهن .

وكان العشاء الغليظ ، وكان للسمر المضطرب المختلط ، ثم كان التفرق إلى المضاجع ، فمنا من آثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو فى فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات .

وقد رغبت « هنادى » فى السطح وشاركتها فى هذه الرغبة ومضينا معاً ننتظر النوم ، وكنت أحدث نفسى بأن هذه الخلوة إلى أختى قد تكشف لى عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكنى لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتنى بذلك الإعراض المثلوج الذى لقيتنى به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت فى صمتها ، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدرى كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسى فى فضاء هذا الليل العريض تلتمس ما يلهيها عن هذه الهموم الغامضة المستغلقة التى لم أكن أعرف منها إلا ثقلها . ولكن هذه النفس لم تكد تمضى فى ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، ولبثت كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز .

ذكرتُ هذا كله حين استيقظت ، ومرت بى خواطره مسرعة فى حين كنت أحاول أن أتبين أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفى حين كنت أفتح عينىّ وأديرهما من حولى كأنما أريد أن أستكمل شخصى حين أتبين حقيقة المكان الذى أنا فيه ، وفى حين كنت أمد ذراعى عن يمين وشمال ، وأمد ساقى كأنما أريد أن أستمد لجسمى ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم أستكمل شعورى وأجد نفسى كما كنت قبل أن يغمرنى النوم ، وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد منى ، فأتبين هذا الشخص فإذا هى أختى قائمة جامدة لا تكاد تأتى حركة . ولا تكاد تحس شيئاً ، وكأنها لا تكاد تفكر فى شىء .

إنما هو شخص ماثل ذاهل قد قام فى شىء من الجمود المؤلم ، ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد فى مكانه لا يستطيع منه انتقالا .

وأنت أيها الطائر العزيز تُلقى فى الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب ، فيصل إلى نفسى فيحييها ، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط ، وأختى ماثلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهى إليها : ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد الاكتئاب ، إنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه ، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هى ؟ ما بالها جامدة هامدة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلتُ نفسى تسبح فى هذا الليل العريض فأبعدت نفسها فى المسعى وتركت جسمها ماثلا بلا روح ؟

نهضت من مكانى فى هدوء ، وسعيت إليها فى أناة ، حتى إذا بلغتها مسست كتفها مساً رفيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجرى مسرعة فى جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هى تجفل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتى وأنا أقول لها : لا تراعى ، فأنا أختك آمنة ، ما وقوفك الآن على هذا النحو ماثلة ذاهبة النفس ، كأنك الصنم ؟ ماذا تنتظرين من

الليل ؟ وماذا تبتغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المتهدم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبتغي شيئاً . . .

ثم عادت الرعشة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها انهماراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ، وأنا أجثو إلى جانبها وأضمها إلى وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعني ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس ، ومضت دموعها تنهمر ، وأوت إلى ذراعي كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرءوم ، وأطمأن رأسها إلى كتفي ، وقضت كذلك لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، ولبثت حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تتوق إليه فلا تجده ولا تظفر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد: لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أمي لا منك أنت أيتها الأخت الصغيرة ؛ فإنك لم تخلقي لتدللي أختك وتمنحيها مثل هذا العطف والحنان .

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تفنى ، ويبسط عليه هذا السكون المخيف ظلالاً لا حد لها ، ثم يندفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضيء ينطلق في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي

كانت ثائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم . وإنى لآخذ نفسي بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان ، وألزم جسمى السكون فى هذا الوضع الذى هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس المحزون مستريحاً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعيها فتطوق بها عنقى ثم تضمنى إليها ، ثم تقبلنى ، ثم تقول : إياك أن تفعلى ما فعلت أو تُخدَعى كما خُدعتُ أو تدفعى إلى مثل ما دُفعت إليه . إنك إن تفعلى ترى نفسك فى مثل ما ترينى فيه الآن من الجزع والهلع ، ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من رَوْح الله الذى لا يقنط منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذى دُفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذى تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذى صُب علينا صباً ولم نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهى تقبلنى : لست أدرى أأحدثك بذلك أم أكتمك إياه ؛ إنى لأعتدى على سنك أن تحدثت إليك ، وإنى لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يغنى الآن شيئاً ؛ فقد عرفت أن هماً ثقيلا ألم بنا ، وأن حزناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإنى لحمقاء إن قبلت أن أنزَعَ من ذلك العيش الناعم السعيد الذى كنت أستمتع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعاً ، فحدثينى حديثك ، فمن يدرى لعل فيه لى عظة ولك عزاء .

٥ - 5

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتنقتين قد أغرقتا فى نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مس الأرض الغليظة ، ولا اضطراب الدواجن من حولهما وهن يزدحمن على ما ينثر لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن فى الصحاف من ماء ، ويخفقن بأجنحتهن فى الهواء مقبلات مدبرات ، واقعات طائرات ، يتادين ويتناجين ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجو حياة ونشاطاً وحبا .

وكأن هذا كله كان يدعونى دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذى كنت مغرقة فيه ، ويدنينى قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ؛ ثم أحس كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مس كتفى مساً يسيراً فأنتبه ، ولا أكاد أفتح عينى وآتى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرفة فى الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت فى رشاقة وظرف غير بعيد ، فأستوى جالسةً وألقى نظرة إلى أختى وقد ثاب إلىّ حديثنا كله مرة واحدة فلأ قلبى إشفاقاً وحباً وحزناً . وتقع عينى عليها وقد استراح جسمها المتعب ، واستقر قلبها المضطرب ، وهدأت نفسها الثائرة ، وزالت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكئيب ، فبدت نضرته حلوةً مشرقة شائقة . كأنها نضرة الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا فى هذا الوجه الهادئ النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للعقل ، ومتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عينى عنه ، مستريحةً معجبةً مكبرة ، ولكنى أسمع من ورائى

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إليّ : انظرى . . . انظرى . . . وأطيلى النظر ! ألست ترينها حسناء رائعة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمّنا جالسة تنظر إلى الوجه الذى أنظر إليه ، وما أشك فى أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى ، وفى أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملأ قلبى ، فأسألها : ما جلوسك هنا فى هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملأ عينى بمنظركما الجميل . . . ثم تنهض مولية فى شىء من الإسراع وهى تغالب شجىً يريد أن ينفجر ، وتحرص هى على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا فى مكانى ذاهلة أو كالذاهلة ، أنظر إلى أختى التى لم تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ، وأفكر فى هذه الفتاة البائسة وفى هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسى : أيهما أحق بالعطف وأجدر بالرثاء ؟ وأسأل نفسى : أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية ؟ فكلتاهما فى حاجة إلى العون ، وكلتاهما فى حاجة إلى العزاء . . . .

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن ، وهى تستقبل الشقاء الآن مظلماً قاتماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تَسْعَ إليه ، وإنما أكرهت عليه إكراهاً وأغريت به إغراء ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهى الآن غريق مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

وإنها لفى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "تمامة" تستطيع أن تستمسك بها وتستبقى فضلا من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التى لم تبلغ الشيخوخة بعدُ ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ : حرمانٌ متصل، وانصراف عن كل ما فى الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما فى الحياة من متاع ،واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت ، ونظر متصل إلى هذا الماضى القريب الذى يملؤه الحزن ويفعمه الأسى ، وتضطرم فيه هذه النيران التى تُحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعفها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعاً وغدراً .

وإنها لفى ذلك محزونةً لأمسها ، يائسة من غدها ، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديد ثقيل ، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التى بَلتها فى حياتها الماضية ، فهى تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً .

لقد أنكرتها الأسرة وجفاها الأهل ونفتها القرية ، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين ، وإذا هى تُنكبُ فى إحداهما لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنتظره . كلتاهما بائسة ، وكلتاهما شقية ، وكلتاهما خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه فى هذا كله . ولكن هذه النكبة الملمّة ، والكارثة الملحة قد باعدت بينهما : فالأم محنقة على ابنتها : والفتاة نافرة من أمها ، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما فى عين الأخرى ، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة ، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما ! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلةٌ إحداهما إلى أن تولى مدبرة لتنأى عن صاحبتها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث .

هل أستطيع أن أردّ ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة

والابنة المحزونة ؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التى لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء ؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضى ، وماذا تريد بنا أمّنا هذه التى تأمر وتنهى فى لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالا ؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه ، وأحرى أن أسعى إليه . فلأتبعن أمى إذن ولأتلطفن لها ، ولأسألنها فى أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها ، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتى ، أو فيما يمكن أن نأتى من الأمر .

كل هذه المعانى تضطرب فى نفسى ، وعينى لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادئ الذى يدل هدوءه على أن أختى ما زالت فى تلك الأعماق البعيدة التى كنت فيها منذ حين ، لم يبلغها ضوء الشمس وحرّها ، ولم يؤذها مسّ الأرض وغلظها ، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح .

فأنهض متثاقلة مترفقة حتى أهبط فناء الدار ألتمس أمّنا ، وما كان أيسر الوصول إليها ! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية تعبث فى الأرض بأصابعها عبثاً يدلّ على شيء من الذهول ، كأنما كانت تناجى همّا ثقيلا أو تتبع خاطراً بعيداً ؛ حتى إذا بلغتها مسست رأسها بيدى وسألتها مداعبة : ما هذه اللعبة التى تلعبين ؟ وهلا دعوتنى لأكون شريكتك فى اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة . . .

قالت وقد رفعت إلىّ رأساً حزيناً : أترينني ألعب يا ابنتى ؟ قلت : فما عسى أن تفعلى بهذا التراب الذى تذهب فيه أصابعك وتجىء ؟

ثم أنهضتها فلم تمتنع علىّ ، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء

لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هى تنقاد إلى مستسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوى قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسى قوة ، وشعرت كأنى أنا الأم « زهرة » وكأنها هى الفتاة « آمنة » ، فاتخذت صوتها ولهجتها وألقيت عليها فى غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدين؟ وماذا تصنعين؟ وأين تذهبين بنا؟

قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب بكما ، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين ؟ قالت : سنرى . قلت : ومتى نرى ؟ قالت : لا أدرى . قلت : فقد ينبغى أن تدرى ؛ فما يحسن بثلاث من النساء أن يهمن فى الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتتلقاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا العمدة وقد يردهن ذاك . قالت : فماذا تشيرين؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك الدور التى كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت فى غضب وحدّة : أىّ أمن وأىّ هدوء ! إنك إذن لم تعلمى . قلت : بل علمت . قالت : وقد اجترأت البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكونى لها شريكة ! قلت فى رفق : دعيها وما هى فيه الآن وعودى بنا إلى ما كنا فيه :

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل ، فإنى أرى أن نلتمس العمل فى قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت فى هذا ، ولكنى أرى

أن ليس إليه من سبيل ! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج ! قالت : بل لنا من يحمينا ، وقريتنا التى نفينا عنها أحقّ بنا ونحن أجدر أن نعود إليها . ولئن بلغناها ليعلمنّ الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنفى الأسر نساءها وكرائمها ! فالمرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يصان .

قلت : فأنت تريدين إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التعسة التى كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شزراً ، ولا يعطفون عليك إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا فى سخرية ورحمة شر من السخرية ؟! قالت : نعم ! فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى إن مضينا فى هذه الحياة الهائمة التى لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت تلك الأسباب التى كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القربى وسخر الأعداء ورثاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها العهد . ولئن بلغنا قريتنا ليذكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر ، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسونا ، ولا نلبث نحن أن ننغمس فى حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بائسات ، ولكن آمنات . . .

قلت : وتريدين أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ، نتنقل من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ، وقد أعجلتنا بالرحيل عن كل أمرنا ، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل عندهم! قالت : سترين ، فلن ينالكما جهد ، ولن يمسّ حياءكما أذى ، سنقيم هنا حتى يأتى من يحملنا إلى قريتنا ويبلغنا مأمننا بين الأهل والأصدقاء .

قلت : وكيف يستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت منذ أصبحت أن اليوم فى القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ، فلأسعين بين الناس والبائعات ، فلن أعدم بينهم رجلا أو امرأة من أهل قريتنا أو من أهل قرية مجاورة ، فلأحملنه رسالة إلى أهلنا ، ولن يتم الأسبوع حتى يكون أخى هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغى أن نعيش .

وهممت أن أمضى معها فى الحديث ، ولكن حركة عنيفة قطعت علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط ويدعون إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقدمهن فيستجبن للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن نستجيب كما استجبن ، ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أصعد فأنبه أختى هذه التى لا تريد أن تفيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل .

فأصعد ، ولكنى لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظنى طائرى العزيز .

٦

وأقبل من فى الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحمن بالمناكب ، ويتدافعن بالأيدى ، ويتزاجرن باللفظ واللحظ ، ويرتفع فى أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن

يوتى الله حزامه، ويعلى مقامه، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .

ونحن نسعى وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ، وقرّت الأجسام ، واضطربت الأيدى وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذيني منظره ويقع من نفسي موقعاً أليماً . ما أبعد ما بين هذه الأيدى الغليظة الخشنة قد تقلص جلدها وتقبّض، وهى تغوص بما فيها من الخبز غوصاً فى القصاع فتصيب منها ما تستطيع ، وما بين تلك الأيدى الرقيقة الرفيقة الناعمة المترفة التى لم تكن تمتدّ إلى الأطباق إلا هينة ، والتى لم تكن تمسّ ما فى الأطباق إلا بهذه الأدوات التى يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التى يلقى فيها الطعام إلقاءً على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرده الحلوق ! وكأن الطبيعة لم تودع هذه الأفواه حسًّا تجد به لذة ما تأكل وما تشرب، وإنما اتخذتها طريقاً إلى الحلوق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التى لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتى لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنتهى بما فيها إلى حلوق تزدرد ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسها من الألوان ، ثم تنتهى به على مهل إلى حلوق تسيغه فى أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون لا بدّ فيه من الروّية واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التى حشرنا فيها حشراً فى فناء هذه الدار ، وما بين تلك الأسرة التى كنت أعمل عندها وأجد فى خدمتها حين تجلس إلى المائدة لذةً ومتاعاً يعدلان بل يربيان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين

أجلس إلى طعامى مع رفاقى من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم !
أين أجد القدرة على أن أدفع يدى مع هذه الأيدى وأحرك فمى مع هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقةً بهن ، وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدى وأصيب منه قليلا بين حين وحين . وأمّنا تصيب من الطعام فى قصد واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأختى واجمة ساهمة كأنها فى أرض غير هذه الأرض ، و فى حياة غير هذه الحياة .

ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهم نحن أن ننتحى ناحية ، ولكننا لا نكاد نبلغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا فى الحديث . تقول إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ، ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر : ما رأيت كاليوم نسوة يستغنين بالأعين والآذان عن الأيدى والأفواه وعن الألسنة والحلوق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكنّ صوتاً ولا عرفنا من أمركن شيئاً . وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن إليه يداً ولا تكدن تصبن منه حظًّا ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات وهن يلتقمن ويلهمن ويزدردن ، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من فى الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر معها فى الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون . حتى إذا

فرغت من ضحكتها وجرّت الهواء إلى جوفها جرًّا هو أشبه بالشهيق المثير قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة ورضًا؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمّنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمّنا لم تنطق بحرف ولم تعرف كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ، وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعينى هذه المرأة الجريئة اللعوب فغضتهما ، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير يلحّ عليه الكبار فى السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلىّ وقالت : هذه أمك صامتة لا تقول ، وهذه أختك واجمة لا أمل فى أن تفهم ولا فى أن تجيب ، فتكلمى أنت فإنى أرى فى عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أظن أن فى عينيك ملحاً . . .! قولى من أنتن ومن أين تُقبلن؟ وما خطبكن ؟ وما إعراضكن عن الطعام؟ وما إيثاركن للصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع الضحك عن نفسى أمام هذا الهجوم المفاجىء الغريب ، وأمام إغراق هاتين المرأتين الأخريين فى الضحك ، وإغراق أمنا فى الصمت ، وإغراق أختى فى الوجوم : وأنت من تكونين ومن أين تُقبلين ؟ وما أنت وسؤالك إيانا وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتيها : ألم أقل لكما إنها « قارحة » ليس فى عينيها ملح ، وإنها هى التى ستستمع لى وترد علىّ ! ثم التفتت إلىّ وقالت : تحقيق . . . أتسمعين؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنى تعودت التحقيق مع النساء

ومع الرجال أحياناً والإلحاح فى السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت ضحكتها ورجّعت شهيقها، وسألتنى ملحة : من نكون ومن أين نقبل؟!

وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر، جادةً حيناً وهازلة فى أكثر الأحيان، وصاحبتاها تعينانها على بعض ما تريد من ذلك، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى، وعرفت من أمرهن ما رغبنى فى ألا تنقطع الصلة بينى وبينهن ما أقمنا فى هذه الدار، وكن جميعاً من أهل المدينة التى أقبلنا منها، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعياً على أقدامنا. فأما هذه المحققة التى كانت تسأل وتلحّ فى السؤال، وتمازح وتغلو فى المزاح، فكانت امرأة عظيمة الخطر، عرفتُ من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفى جميع الأنحاء لا فى المدينة وحدها بل فى كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع.

كان اسمها «زنوبة» وكان تاريخها حافلا بالخطوب والأحداث، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس. كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفدون على المدينة فى فصل الشتاء ليشتغلوا فى معمل السكر. وكانت تفيد من فصل الشتاء لهواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً. حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلا قليلا آثرت ظاهراً من القصد، وتكلفت شيئاً من الاعتدال، وأسدلت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون.

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها فى المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلالها إلى بعض الدور واستماعها لكثير مما يلقى من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث ويلم من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك هيبة ، فكان الناس يخافونها ، ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث فى بعض أندية الشباب وفى داخل كثير من البيوت ، وحين يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة. وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعانتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم فى تلك الخيام التى كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .

هنالك كنت ترى «زنوبة» حركة متصلة كأنها النحلة ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . هى فى كل شارع وفى كل حارة وفى كل زقاق وفى كل بيت ، ونقالة الصحة من ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفى تلك الأوقات كان الناس يبغضون زنوبة أشد البغض ، ولكنهم كانوا يضطربون إلى لقائها واحتمالها ، يبسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسسها ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التى تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال . فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميه . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرابية ، تقرض الجنيه بثلاثة أمثاله منجمة على العام ، وتشترى من الأسواق فى المدينة والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصاً ثم تبيعه بين الفقراء والبائسين ، تشتط عليهم فى الربح لأنها تصبر عليهم فى اقتضاء الثمن . وقد زهد الشباب فيها وقل نشاطها إلى اللهو الجرىء ، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلا من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين ، قوىّ البنية طويلا ضخماً ، مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيئ الخلق ، مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلا ، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت . وهى حين رأيتها لأول مرة كانت قادمة على القرية التى كنا فيها لتشترى ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقل خطراً من زنوبة ولا أهون شأناً ، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج من المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد بها الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلب منها مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التى هى مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال . لم يكن فى المدينة بيت مترف

إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً . ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تفضى إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشتد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشترى من البضائع والعروض ، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائب والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسامع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً وقلما يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلا في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة ؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشق بمضغها

الأضراس ، وتجد فيها الأفواه والحلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التى تجدها فيما يصنع فى المدينة من الحلوى السمسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التى يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهد .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التى كانت تجلبها لهن والتى كن يَفْتَنِنَّ فى إدارتها حول رءوسهن وفى اتخاذها سجوفاً فتانة خلابة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التى تنتظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتى توصل بالضفائر ، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة ، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مغتبطين أول الأمر ، يجدون فى ذلك رضاً بريئاً وتلهية نقية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملحة على وجوههن وفى حديثهن وفى تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن فى الطبقة والثراء ، تنقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهى فى ذلك اليوم الذى لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله

يورق ليل كثير من الريفيات ويملأ أحلام كثير من عذارى الفلاحين .

ومن الخطأ أن يظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبتيها أو أيسر منهن شأناً عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة فى السن قد بعد عهدها بالشباب ، وتركت الشيخوخة فى وجهها وصوتها وجسمها كله آثاراً قبيحة منفرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت دخيلة فى كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقص ما كان وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم فى كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التى لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له . هذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضرتها فهى تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريتاً من الجن يصده عن خليلته أو عن زوجته . وهذه تحس من زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فهى تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً فى نفوس الرجال والشبان منها فى نفوس النساء والفتيات ؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن ، وقد كانت تحسن تسخير الجن فى قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تستريح من السعى بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن شهرتها بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هى تسعى إليهم وتنتقل بينهم بسحرها

وطلسماتها وودعها . وهي حين رأيتها كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكد يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والعفاريت ، لم نجد فى ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً. فهذه الفتاة الذاهلة التى لاتكاد ترى ولاتسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز فى السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأمنا أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختى علة قد أعيت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونثراً ، تلائم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالا تقرأ فيها من أنباء الماضى والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إنى لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهى تنظر فى الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التى تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإنى لأسمع صوتها المحطم الذى كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإنى لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيتها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى ودعها ، ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عينها إلى أختى فأطالت النظر فى وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه ، ثم رفعت رأسها وهى تقول للفتاة : إن أمرك يا ابنتى لعجيب ، إنى أراك بين اثنين : أحدهما

يحبك وسيؤذيك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإنى لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . والرأى لك يا ابنتى أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء . . . وما أرى أن هذا عليك عسير ؛ فى هذه القرية القريبة منا والتى تستطيعين أن تبلغيها فى ساعة وبعض ساعة ما تحبين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتى بالأعاجيب ، وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكد نفيسة تنطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت أمنا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل .

٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر فى الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث . . . ما خطبك ؟ وما أنباؤك ؟ وما الذى يغريك بى ويسلطك علىّ ؟ ! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلىّ فتوقظنى ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلى بينى وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظنى إذا تقدم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام . . . ! ابعث نداءك سريعاً بعيداً أولا تبعثه فقد أيقظتنى ، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إنى لأشعر بأنى سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيتها أمس ، وإنى لأتهيأ للنهوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، إن لك لشأناً . . !

ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعوّد أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ فإنى لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها منتشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة فى هذا الجو المخيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إنى لأسمع نباحها قوياً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعها .

ماذا أيقظ الناس ؟ إنى لأحس حركة خارج الدار ، وإنى لأسمعهم يتداعون ويتنادون ، وإنى لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .

ماذا أيقظ من فى الدار ؟ إن الحركة من حولى لتكثر وتختلط وتشتد ، وإنى لأشعر بالفزع قد انتشر فى الجو كما ينتشر الدخان الكثيف .

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك لم توكل بإيقاظى وحدى ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً . انظر ! إن كل شىء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى النجوم ؟ ولكنى أنهض لكل ما أحس حولى من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسأل أختى هذه الماثلة الذاهلة : ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ، فيأخذنى حنق وغيظ ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصيح بها : ماذا ! ألا تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تنتبه وتجيبنى فى شىء من الوجل : ماذا تريدين ؟ فأتركها مستيئسة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتساءلن ويتجاوبن ، ويشتد بينهن لغط مختلط لا يكاد ينقضى .

هناك أجد أمنا بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالغائبة ، ومستيقظة كالنائمة ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتنى فى صوت

هادئ حزين : زعموا أن رجلا قد قُتل قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ، وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم لالتماس القاتل.

وقضينا بقية الليل ساهرات نتسمع ما يصل إلينا من الأخبار التى إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهى أخبار القتل فى المدن والقرى وفى الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذى صُرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء فى القرية ، وكان قوياً شديد البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له فى القوم آثار لم تُنْسَ ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل يطرق بابه طرقاً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفِقْ أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار. فذعر أهل البيت لهذا الطرق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما راعه إلا شيخ الخفراء يبرق ويرعد ويلح فى النذير ، ثم دخل الدار وطاف بحجراتها وغرفاتها يلتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويغلظ فى القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت ، وأنه إنما روّع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وها هم أولاء قد وفوا بالنذر

وقتلوا عبدالجليل. وهاهو ذا العمدة يفرّق رجاله فى كل صوب ، يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق من فلان . وهذه القرية هائجة مائجة تسأل وتبحث ، وتستقصى وترتاع .

وهذه جثة عبد الجليل طريحة غير بعيد من الجسر ، قد فارقتها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها فى مكانها حتّى تأتى الشرطة من المدينة ، وحتّى يأتى المحققون . وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى ، فأقاموا حول الجثّة حيناً يسألون ويشرّح الطبيب . ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات ينظرن إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ، ويمضوا فى التحقيق ، ويصيبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات . ولكن ماذا ؟ إنى لأتراجع مسرعة وقد اضطرب قلبى اضطراباً لا يكاد يستقر معه فى صدرى ، وقد تكلفت جهداً عنيفاً لأحبس صيحة كادت تنبعث من فمى ، وهذه أمى تجرّنى إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معى فناء الدار ، ثم تهدئنى بعض الشىء ، ثم تقول لى كالهامسة : إياك أن تظهرى أو أن تدّعى هذا المكان فإنه والله إن رآك لم ينصرف حتّى يستصحبك . ذلك أنى كنت قد رأيت المأمور .

لماذا أكذب نفسى ! لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأن أسأله عن خديجة ، وأن ألح عليه فى أن يستصحبنى ليردّنى إلى تلك الحياة الناعمة وليحمينى من هذا الظلام الذى كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأى .

نعم ! لقد هممت بهذا كله ، ولقد كدت أفعل ، ولكنى رأيت

أمى وما كانت تستصحب من بؤس قديم ، ورأيت أختى وما كانت تستقبل من بؤس حديث ، فآثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضمر لها الأيام .

٨

آمنة . . . آمنة . . أقبلى . هذا صوت أمنا ينتهى إلىّ ، وقد انتحيت ناحية مع زنوبة وخضرة على السطح ، نتحدث ألواناً من الحديث ، وأختى جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من همّ وحزن ، فإذا سمعت الصوت أسرعت إلى أمى فى الناحية الأخرى من سطح الدار ، فإذا هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى كانت تُغَشّيه ، وهى تبتسم وتشير بيديها وتقول لى: انظرى انظرى ! هذه والله إبل « يبى وركان » . فأنظر فأرى أعرابياً كأنه الشيطان وقد أناخ قريباً من الدار جملين عظيمين وأخذ يحط عن أحدهما بعض الأثقال . أمى مستبشرة متهللة تشير وتلحّ فى الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك ناصراً ؟ ألم تعرفى هذين الجملين ؟ عرفت خالى ، فما أكثر ما كنت ألقاه أيام الطفولة والصبا ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه ، وأكره منه هذا العنف الذى يتلبس كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقى إليك الكلمات فى حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجدال !

نعم عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أتقيه إذا لقيته ،

ولا أستجيب لدعائه إذا دعانى إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لى من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدّم لى أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يتملقنى ويترضانى .

نعم ! عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأنى كنت ألوم نفسى أحياناً على سوء ظنى وشدة نفورى. حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمى بأنباء هذا المصرع وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر فى أنها أيِّم وفى أننا يتيمتان ، وإنما فكر فى الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجرّ عليها هذا الخطب من عار . . .

ثم لم تكد تمضى أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسى اللحظ جافى اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعد لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمنا فى قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذى أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قريتنا ونفانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشكّ فى أن رأيى فيه لم يكن خاطئاً ، وأن حكمى عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفورى منه لم يكن إلا صورة صادقاً لما ينبغى لهذا الرجل الغليظ فى قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تجن على أحد شرًّا ، ولا تفهم أن يجنى عليها أحد شرًّا . وكانت أمى وأختى تتبعانه

ببصريهما محزونتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل فى نفسيهما صورة الوطن الذى نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذى كان يوجه بصره شطره، ولكنى لم أكن أراه لأنى لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عينى من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التى أخرجت منها إخراجاً ، لعلى أرى دارنا ، ولعلى أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذى كنت ألعب فيه مع أترابى من الغلمان والصبيان ، ولكنى لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة فى السماء بعض الشىء ، وأقدّر أن قريتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذى ينبسط من دون هذه الهضاب ، والذى كنت لا أمضى فيه قليلا حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأنى أترك فيه قطعاً من نفسى أنثرها فى أرضه الخضراء نثراً.

نعم ! عرفت خالى ناصراً وهو قائم بإزاء جمليه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصورته قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التى رأيته فيها يضع أثقاله وسمعته فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزدد إلا يقيناً بأنه شيطان . سأل خالنا عن صاحب الدار . وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلا أعرابياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفّ العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابى باسماً وادعاً ، والأعرابى يحييه فى غلظة وجفوة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبىّ قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التى حطها عن جمليه إشارة المكبر لها الدال بها ، والعمدة يدعو

بعض رجاله ويشير إليهم أن احملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الجملين. ثم يدعو ضيفه الأعرابي، رفيقاً به شاكراً له، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار.

وقد اطمأنت الدار بالأعرابي، ولقي من كرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعوّدوا أن يخوضوا فيه من الحديث، قال فجأة: إن لنا عندك ودائع يا عمدة، فاردُدْ علينا ودائعنا! فالله يأمر أن تؤدّى الأمانات إلى أهلها. قال العمدة: ودائعك محفوظة لك، مردودة عليك يا شيخ العرب، فما ذاك؟ قال الأعرابي: امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان، سألتك الضيافة فآويتها وآويت ابنتيها وأحسنت لقاءهن وأكرمت مثواهن، ونحن أعرف الناس بحق الكرام. قال العمدة: وما أنت وهذه المرأة وابنتاها؟ قال الأعرابي: هي أختي. قال العمدة: فقد نزلن على الرحب والسعة، وما فعلت إلا ما كان يجب عليّ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك؛ فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضينا، وقد بعدَ عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه، وكانوا قد خيموا في ظاهر القرية أشهراً، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل. واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر.

٩

أما أنا فلم أطعم النومَ فى هذا الليل الطويل الثقيل ؛ لأن أختى لم تطعم فيه النوم ، ولم يحتج طائرى العزيز إلى أن يوقظنى بندائه السريع البعيد ، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنى ساهرة مؤرّقة فلم يحتج إلى تنبيهى ، فانطلق فى الجو الفسيح ينبه غيرى من الذين لم تؤرقهم الهموم والأحزان .

عدتُ إلى أختى كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخفى ما أجد من الكآبة وضيق الصدر ، فأنبأتها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات فى أكبر الظن إذا أسفر الصبح ، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة بيننا وبين البحر ، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذى يفصل بيننا وبين بلادنا فى الغرب ، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه ، ثم نعبر هذا البحر ونمشى على هذا السهل الجميل النضر الذى تلتقى فيه أرض الصحراء المجدبة وأرض الريف المخصبة ؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى فى الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التى تقوم من ورائها قريتنا وادعةً هادئة كأنها تحتمى بها من كل طارق يأتيها من الشرق . أنا أزيّن لها هذا كله بلسانى ، وأتكلف لها مظهر المرتاحة له المغتبطة به المقبلة عليه فى سرور ولذة وشوق ، والله يعلم إن كنتُ لمحزونة أشد الحزن مبتئسة أشد الابتئاس ، تنازعنى نفسى إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التى ترامت أطرافها ، وامتدّت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمةً بما فيها

من حضارة وترف وثراء . والله يعلم أنى لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذى سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمى وعلى أشدّ الكره منى . ما كنت أحفل بالحقول المنبثة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة فى التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبة ، ولا أجد حنيناً إلى هذه القرية الوادعة التى درجت فيها . إن هناك لحقولاً أخرى منبثة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة فى دعة وفتور وتكسر جميل، وإن هناك لخطًّا عريضاً من الماء أشدّ روعة وجمالاً وإثارة للسحر فى القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسمونه بحراً وما هو بالبحر ، وإنما هى قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لدوراً شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة ، وتلذّ الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهو بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك لفتاةً جميلة وسيمة رقيقة هى التى أحنّ إلى لقائها وأتحرّق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع فى تلك القرية ، وأىّ حياة تهيأ لى فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى امتزت من أمى وأختى وأخذت أشعر بأنى أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكارثات. ألست أدنى منهما إلى الطفولة ، وأجدر منهما أن أكون غرّة غافلة ؟ ومع ذلك فإنى أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون !

كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشدّ الاختلاف ،

ازين لأختى ما أبغضه أشد البغض ، وأمنى نفسى بما ليس إليه من سبيل . وكثيراً ما خطر لى خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لى سخيفاً مستحيلاً ؛ كثيراً ما خطر لى أن أتغفل من حولى إذا تقدم الليل ، وأن أنسل من الدار وأن أهيم على وجهى نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحية الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذى كان يمر بنفسى من حين إلى حين مراً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ؛ لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة . وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قيام ! وكيف الانسياب فى الريف ؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة فى ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل ! وكيف لى بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟

أقيمى أقيمى يا آمنة ! وانسى نفسك ولذتك وراحتك ، وانظرى إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهولها ليمزق القلب ، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التى أخذت تنحدر من عينيها فى سكون وصمت لخليقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ، وعن كل عناية إلا بها . ألحى ألحى يا آمنة فى تزيين الرحيل ، وفى التحدث بما سنجد فى القرية من أمن ، وبما سنستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختى لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى . هى مثلى لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذى تركت قلبها فيه : هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .

فى هذا البيت تركت أختى قلبها . وهى من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهى من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو تردّ علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزونة لما تورّطت فيه من خطيئة ، وما أشك فى أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك فى أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكننى بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسى تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التى تنظر وراءها فترى حبّاً مضيعاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروّعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يمكن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام ، تدفع إلى حيث الخوف والروع ، وإلى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتندفع، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينمّ عن مقاومة أو ممانعة .

يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتمحو حظها من الشخصية والإرادة محواً، هذه القوة التى يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمات!

أنا أكذب على أختى فأزيّن لها ما أكره ، وهى لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما فى حياتها قد انقضى منذ أمرت أمّنا بترك المدينة ، فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن ممّ كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذى كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين ، والذى كان يبعث فى جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى الوثوب ؟ إن فى هذا الغرب الذى ندفع إليه خموداً وخمولاً ويأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء، وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث فى النفوس هذا الجزع ، ولا يثير فى الأجسام هذه

الرعدة العنيفة المخيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدّر ما لا أقدّر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتقعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام ، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع ، وكلها يأس وقنوط ، وكلها جزع وفزع ، وكلها يلوّنها الدم وقد يساقط منها قطرات .

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيتها الفتاة التعسة ؟ ! إنما ترحلين بين أملك وأختك وخالك إلى قريتك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبوك وأحببتهم ، وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أتذكرين ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحنيناً إليهم في المدينة كلها التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقائهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبته ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفة مخيفة مروعة مثيرة للروع . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازاً . وأما هذه التي تسمى مارتا فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة في التراب . ما الذي ينتظرني من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاهدة ، أتلطف حيناً حتى أقبلها وأداعبها ، ثم أشتد

فى التلطف بها حتى أستعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو فى العنف وأنذرها بأنى سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير لنفسى ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتنى إلى الأناة والمهل ، وأظهرت التجلد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمئناناً لا يلبث أن يزول .

يا لك من ليل طويل بغيض ، لم نعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب الندم المضنى على ما فات ، والخوف المهلك مما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على المسير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والهم يغشى نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تدور فى رءوسنا دوراناً متصلا يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصيح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبئنا أو تتنبأ لنا ؟ قالت أختى : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأتنى بين رجلين أحدهما آذانى وسيحبنى والآخر أحبنى وسيؤذينى ، ألم تفهمى عنها شيئاً ؟ قلت : وماذا تريدين أن أفهم عن هذه العجوز الحمقاء ومن هذا السخف الذى ترد ده فى كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أختى : فإنى أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك، وستريهما وستعرفينهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حبًّا كثيراً !

وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمنا، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الجملان قد هيئا للرحيل. وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه الشيطان ، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج فى رفق . وها نحن أولاء نودّع من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضى ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا فى هذا السهل الريفى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح وإنما هى مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هى زائغة دائماً . . . إلى أين يمضى بنا هذان الجملان !

١٠

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمنعة ، وإلى حيث نقضى حياتنا كما تعوّد أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين حياتهن هادئات ناعمات ، حتى إذا تقدمت بهن السن وأدركتهن ميعة الشباب ونضرته سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى

المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة فى البيت أو سيدة فى الخيام ، واستقبلت حياة فيها الجد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستتبعون من بهجة وقرة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظرى يا ابنتى الكبيرة إلى كل هذا النور الذى يصبه الضحى علينا صباً والذى يغمرنا ، والذى نمضى فيه كأنما نخوض لجة البحر . انظرى إلى هذا النور الذى يغمرنا ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظرى إلى هذه الحقول تنبسط عن يمين وشمال لا تكاد تنتهى ؛ وانظرى إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجد حياة لا حد لها ، فهم يذهبون ويجيئون وهم يعملون لا يعرفون كلالا ولا سأماً ، وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذى يبعث فى هذا الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذى يصور الأمل فى غير إسراف ، والرضا فى غير استكانة ، والاطمئنان فى غير حزن ، وحب العمل على كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظرى يا ابنتى واسمعى ، ثم سلى نفسك : أتجدين فيما ترين أو فيما تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؟ كل شىء آمن وكل شىء يدعو إلى الأمن ، كل شىء هادئ وكل شىء يدعو إلى الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنها لتحب الخوف وتثيره ، وإنها لتبعث الأشباح من مكامنها ، وإنها لتغرى القلق بالنفوس وتسلط الهم على القلوب . . . لقد كنت يا ابنتى تثيرين فى نفسى مثل ما كان يثور فى نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عينى إلا

رأيت ، ولا أمد أذنى إلا سمعت ، فإنى لأضحك منك ومن تلك الهواجس التى كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التى كانت تتراءى لك وتمثل أمامك . وإنى لأضحك من نفسى ومن انقيادها لك بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما. انظرى واجتهدى فى أن تستحضرى الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تتراءى فضلا عن أن تمثل أمامك أو أن تسايرك. إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع أن تظهر فى وضح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفزع واليأس بنات الليل ، تطمئن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به ويبسط عليها ظله المظلم الساكن المخيف ؛ فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر فى نفس ولا سلطان على قلب . انظرى إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيضى بعض إشراقه على نفسك. انظرى إلى هذه الحياة التى يملؤها النشاط فأفيضى منها على قلبك . ألست تحسين الحاجة إلى أن ترفعى صوتك بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ ! ثم انظرى إلى أمنا وخالنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديد النشاط ، وإنهما ليتحدثان فى هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التى نحن فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الريبة أو آية من آيات المكر ، أو دليلا من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمترجان بما حولها فإذا هما حياة وأمن وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمناً وأملا .

ويسلك حديثى هذا سبيله إلى قلب أختى كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هى تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها

لا تسرف فى العبوس ، إنما هى كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا يأساً . والطريق تمضى بنا مستقيمة جميلة يحببها إلى النفوس هذا النور القوى الذى يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الخصب وهذا الغناء الحلو يرتفع فى الجو ، ويمتزج بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجوز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبلغ العصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نستريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سينتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بنى فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينيخ بنا عند دار العمدة وننزل من هذه الدار أحسن منزل ،وإنى لشديدة الرغبة فى أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أختى لتشاركنى فى هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعه أمنا ولم تمتنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعتزم؟

وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف فى قرية مجاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل ويبسط ظلمته بسطاً ، ونكاد نستيئس من استئناف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء

إلى الرحيل . وها نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هى إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجملان قد دفعا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسدالا ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شىء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التى تأتينا من بعيد بين حين وحين فتتبنها ، فإذا هى أصوات الكلاب تنبح فى القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التى تحيط بنا وتمتزج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهى أصوات الحشرات والضفادع المنبثة فى الحقول وعلى شواطىء الأقنية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجّع ترجيعاً جميلا مخيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلا ثم ينقطع . ويمضى خالنا فى حديثه مع أمنا ، أو يغرق خالنا وتغرق أمنا فى الصمت العميق ، وأنا وأختى نسمع لهذا كله ونتحدث فى شىء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفر من شىء نخافه أو نقدم على شىء نخشاه . ومن يدرى ، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن تتراءى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها ؛ والجملان يسعيان بنا سعياً فيه إسراع ولكنه إسراع لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان فى السعى ! وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافة

من حين إلى حين ، ونفوسنا تريد أن تهيم فى هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أنّى لها أن تهيم فى سكون الليل وهى مضطربة وأنّى لها أن تختلط بظلمة الليل وفى جنباتها هذه الأنوار الضئيلة الشاحبة أنوار التفكير فى غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ؟ ! وأنّى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلا قليلا ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذى لا يستطيع أن يكون أمنا ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق خفى ماكر يفسد من حوله كل شىء ؟! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض أبصارنا حتى لا نراهـا ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا ! والجملان يسعيان فى جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً مخيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا يجب أن ننزل . وما هى إلا أن يناخ الجملان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر فى شىء ، وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملأ نفوسنا كما أطبقت علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا فى غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضى الجملان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء ننزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجملين ، وفيم النزول فى غير منزل ، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكنى لا أكاد أدير لسانى فى فمى ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ؛ إنما هى صيحة منكرة مروعة تنبعث فى الجو ، وجسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض ، وإذا أختى قد صرعت وإذا

خالنا هو الذى صرعها لأنه أغمد خنجره فى صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم فى قوة كما يتفجر الماء من الينبوع . ونحن عاكفتان فى ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم ننتظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفت هنادى من بيتنا اختطافاً ، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث فى فمها ، ثم يهدأ الجسم المضطرب ، ويسكن اللسان المتحرك . ويخف تفجر الدم ، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الذهول كما أخذنا . . .

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغنى من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلا قليلا ، وهذا غناؤك ينتشر فى الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه. وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً ، كأنما هى سهام من نور قد تلاحقت مسرعة فى هذه الظلمة فطردت عن نفسى ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها الجريمة منكرة بشعة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والضحية صريعة مضرجة بالدماء . . .

إن صوتك لم يوقظنى وحدى وإنما أيقظ أمنا فها هى هذه تفيق وها هى هذه تسأل أخاها : أوَ فعلتها يا ناصر ؟ ! وها هى هذه تغرق فى بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التى لا تملك حولا ولا طولا إلا سفح الدموع . ويلك أيتها البائسة ! إنك لتستطيعين أن تسفحى د عك إلى آخر الدهر فلن تغسلى قطرة من هذا الدم الذكى . ويلك أيتها الأم

الآثمة ! إنك لن تستطيعى أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظنى وأيقظ هذه الأم المجرمة التى سفكت دم ابنتها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول . ولكنه لم يوقظ هنادى وما كان ينبغى له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإنى لأنشط مثلك للصياح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض من حولنا ، ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم فى هذه الحفرة التى لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث فى الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتى لينبعث فى الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول فى صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير : هلم فقد آن أن نرتحل . فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات فى صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء بالنذير ، ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء الذى ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلا قليلا ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسللت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغته ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي : كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة وأخذ نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقيها على نفسي ألف مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني ، ويفنى قليلا قليلا كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً . إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز .

إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلي سعياً هادئاً أول الأمر ولكنها

تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولى كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تتقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرنى الموج وأدخل فى الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشئ ، يا له من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحت عليه ، فهى تروعى فيه ترويعاً متصلا ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة ؟ لا أدرى ؛ إنما أعلم أنى كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوى ملح كأنى قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامى من الأرض فى مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شئ ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا الينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى تجيء كأنما أقبلت تزور هذا الظل ، فهى تلم به حيناً وكأنما تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنى أسمع نجوى هذه الظلال ولكنى لا أحقق ما أسمع ، وكأنى أفهم نجوى هذه الظلال ولكنى لا أتبين ما أفهم . . . وأنا جامدة هامدة لا أحس ولا أرى إلا هذا الينبوع الذى يتفجر فى غير انقطاع ، وهذا الظل الذى لا يتحول عنه وهذه الظلال التى تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كريه أود لو أحول عينى عنه ، ولكن حمرته تجتذب عينى إليه اجتذاباً ! إنه لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما تتفجر منه الدماء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مسرف فى الشحوب أحاول أن أغمض عينى وأن أغلق نفسى فلا أحس له محضراً ، ولكن شحوبه يستهوى نفسى ولكن حزنه يمزق قلبى ولكن انحناءه على هذا الينبوع يملؤنى لوعة وروعة

وابتئاساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن فى حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لى لا أثبت عينى فى هذا الظل المقيم ، ومالى لا أثبت عينى فى هذه الظلال المضطربة التى تذهب وتجىء ؟ أنائمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ ألست أتبين فى هذا الظل المقيم ملامح أختى فما لها إذن لا تكلمنى . . . وما لها إذن لا تدعونى . . . وما لها إذن لا تناجينى ؟ لقد عرفتها محبة لى واثقة بى مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لى شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدى لى شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لى عن شىء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هى مكبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة فى المرآة . عمّ تبحث فى هذا الينبوع ؟ أتراها تلتمس صورتها فى هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمنى ، أليست ترانى ؟ ما لها لا تجيبنى ، أليست تسمعنى ؟ ما لها لا ترق لى ولا تعطف على ؟ أليست تسمع هذا النداء الذى ينبعث من فى باسمها فى صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! إنى لأسمع هذه الصيحات ولكنى لا أرى من أختى أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وتزعجها ! فهذا ظلها يستخفى وتستخفى معه الظلال الأخرى ، ويستخفى معها الينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون منى ويستجيبون لى ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أتقى محضرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحى فأقبلوا يرفقون بى ويسألوننى عما أجد .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضى لأهل الدار . إنى لأرى بينهم أمى وإنى لأكره أن أرى أمى . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن ينصرفوا عنى فيجنبونى محضرهم الكريه ؛ إنى لآخذ نفسى بالصمت وأكره نفسى على الهدوء ، وما هى إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار . وهذا الينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً ، وهذا ظل أختى ماكثاً لا يريم ، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجىء . إن لى بهذه الظلال لعهداً ، لقد رأيتها ولقد سمعت عنها حديثاً ، لقد حدثتنى عنها أختى فى تلك الليلة التى قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم .

نعم إن لى بهذه الظلال الحمراء ظلال مرتا وأمينة وملزمة تلك التى كانت تتراءى لنا فتملأ قلب أختى فرقاً وهلعاً وروعاً . . . إن لى بهذه الظلال لعهداً وإنى لأعرفها وإنى لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم . لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبثه ما وجدت من ألم وحزن ، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس . إن نجوى الظلال لغريبة ... ليتنى استطعت أن أفهمها ، ليتنى استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال ! ما بال أختى لا تناجينى ، أتراها لا تحس محضرى ، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عنى ؟ أتتغير لغة الناس إذا ماتوا ؟ ! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء . . .

إنى لأعرف هذه الظلال . لقد كنت فى ضلال إذن حين كنت أزعم لأختى فى بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل ، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه ؛ والظلال ملحة فى المثول أمامى لا يصرفها عنى مطلع النهار ولا يصرفها عنى مقدم الليل . إن الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة ، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا

ضوء النهار فلا نرى الظلال التى تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتى وتسمع كل ما نقول . ولعلها ترثى لنا ، ولعلها تسخر منا ، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً . يا للهول إن تدفق الينبوع ليشتد ، وإن الدم لينتشر من حوله انتشاراً ، وإن الحمرة لتصبغ كل شىء من حولى ، وإن هذه الظلال لتدنو منى كأنها قد عرفتنى وكأنها تريد أن تقبلنى ! يا للهول ، إن الروع ليملأ قلبى ، وإن الصياح ليتفجر من فى فيملأ الجو من حولى كما ينفجر الدم من الينبوع فيصبغ الأرض بحمرته ، وإن أهل الدار ليقبلون على ، منهم الجزع ،ومنهم المطمئن ، وهم يرفقون بى ويعطفون على . . !

وهذه أمى ، يا للهول ! ما أسمج هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضى لهذا المحضر ! إنها لتدنو منى وإن الدم ليجمد فى عروق لمقدمها . إنها لتضع على رأسى خرقة مبللة وإنى لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف عنى هذا الوجه فإنى أكره أن أراه ، لترد عنى هذه المرأة فإنى لأخشى أن تقتلنى . . . وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء ؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء ، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح . أليس لى سبيل إلى الراحة من هذا العناء ؟ ما أكثر ما طلبت وألححت فى طلبها ، وما أكثر ما فرت منى وامتنعت على ، وما أكثر ما خيل إلى أنى أجرى فى إثر شىء أتمناه أشد التمنى وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد فى طلبه كل الجد ، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بينى

وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبيني بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب بالاضطراب الملح المضني بين وجوه أهل الدار التي أكرهها ، وهذه الظلال التي يؤذيني منظرها ويثير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكني أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ، قد ألح الضعف علي فما أكاد أتحرك . على أني أجد في هذا الضعف نفسه دعة وأمناً فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد في نفسي دهشاً لذيذاً حلواً لأني أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفتقده افتقاد السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلي أن قد بعد العهد بيني وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأني قد قضيت وقتاً غير قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتي بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى أجتهد ما استطعت في أن أذود هذه الخواطر عن نفسي مخافة أن يطول تفكيري فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد من السعادة في الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذي منه يتفجر الدم والذي تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسي ، وأستسلم لهذا الضعف الذي أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هامدةً خامدة لا أقدر على شيء حتى على التفكير ، ولكن هذه هي أمي تدنو مني وعلى وجهها الكئيب شيء من آيات الرضا ، وهي تقول لي في هذا الصوت الذي يخيل إلي أني لم أسمعه منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء . ليتها لم تقبل عليّ ، وليتها لم تدن مني ، وليتها لم تتحدث إليّ ! فقد اقشعر لقربها بداني كله ، واضطربت نفسي كلها ، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت

الأشياء تضطرب من حولى اضطراباً وآذانى هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصيح لولا أنى حبست صيحتى فى حلقى ولكن لم أستطع أن أمسك يدىّ وأن أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عينى لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة، وظنت الأم البائسة أنى أتقيها فولّت باكية ، ووجدت فى انصرافها عنى سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمى عن عيادتى والعناية بى ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ، ولم يكن بد من أن تنظر إلىّ وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلى وأسمع منها وأردّ عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفسى من الموجدة والغيظ ما كان يردنى أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاءً إلى شقاء فترسل عبراتها حيناً وتنهداتها حيناً آخر ، وربما أثار فى نفسها غضباً تجتهد فى حبسه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأسترد من القوة وأسترد النشاط قليلا قليلا ، وآتى بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع الانتقال ، ثم تثوب الحياة إلىّ فى قوة كأنما كان بينها وبينى سد ، فلما أزيل أخذت تغمرنى من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا أنا أسترد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة فى كل شىء إلا فى الحديث ، وأمى تدور حولى وتتلطف لى وتغلو فى العناية بى ، وتود لو تجد إلى نفسى سبيلا ، وتنفق جهوداً مثيرة للرثاء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شىء ، وقد أُلقى بين نفسها ونفسى سور صفيق فهما لا تلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من الخواطر

كان يتردد فى نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلا لأنى كنت أجد فى اضطراب نفسى به ألماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض والحقد. فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أمى أو أن أسأل بعض من حولى عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المريد: أين هو وأين استقرت به الدار؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من الصور أثناء العلة، وما أذكر أنى سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره خبراً منذ أخذ البرء يسعى إلىّ ويدبّ فى أعضائى، وما أذكر أن أحداً من أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل الدار وأشترك معهم فى بعض شؤون الحياة. وكنت مع ذلك أريد أن أعرف من أمره بعض الشىء، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشىء، أحى هو أم ميت؟ أأفلت بجريمته أم أخذه السلطان؟ أمقيم هو فى القرية أم ذهب فى الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب؟

ما أكثر ما ترددت فى نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها، ولكنى كنت أحبسها فى ضميرى حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثيم. على أنى لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أمى وقد خلوت إليها، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها: أين هو؟ وما أسرع ما فهمت عنى، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلىّ بالصمت: لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب. قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة سخينة، ولكن بكاءها لم يدعُ بكائى وحزنها لم يثر حزنى فقد كان بين نفسها وبينى سور صفيق. لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ...

فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتمساً مأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه نسياناً ، وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذى غشيه بعد أن سوى الأرض على ضحيته .

ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التى تتمثل لى ، ولم تنهكه هذه الحمى التى أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا لهوا ، كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ، يحمل وجهه البغيض ونفسه المجرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين بلقائه ، وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا يحس ألماً ولا ندماً ، وسيرتفع صياح الفرح لمقدمه فى هذه الدار ، وسيرتفع صياح الفرح فى القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها أعياد يملؤها السرور والحبور . أما أنت أيتها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك فى هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سراً بينها وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يتراءى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به فى ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون . . !

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام عليّ أن أراه ، وحرام عليّ أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج . إنى لعاجزة عن لقائه ، وإنى لخليقة إن لقيته أن أفضح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرًّا. أليست هنادى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ !

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، وافتقد أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها فى القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة فى بعض الطريق قد عبرت البحر مصوّبةً نحو الشرق...

١٢

وإنى لأراها فى طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبى رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث فى لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهى وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شىء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذى يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل ، فهى قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التى لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المريد الذى كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التى لم تكد تتجاوز الصبا ، والتى فرت من أهلها فهى تسعى لا تلوى على شىء ، نحيلة هزيلة ، بائسة كئيبة لا تدرى أين ينتهى بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها

القوت ، بل لا تفكر فى شىء من هذا ، وإنما تمضى أمامها مسرعة فى المضى يدفعها عزم لا يعرف الكلال ، وبغض للشر لا هوادة فيه ، وثقة بالعدل لا حد لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها فى الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحداثة السن وشىء من جمال يغرى بها كل غوى ، ويطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر الغواة والمفسدين فى هذه الطريق العامة التى تستقيم وتلتوى بين قرى الريف !

لك الله أيتها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ؟ ألم تفكرى فى هذه الكوارث والخطوب التى تضمرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعيفات والبائسات خاصة ، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هى مصدر خصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟ ألم تفكرى فى هذه الأقاصيص التى كان يمتلئ بها صباك والتى كانت تسلى نهارك وتروع ليلك ، والتى كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى تضطرم فى أجوافهم غلة لا يرويها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً وجلا قد ملأ الجزع قلبه وفرق الهلع نفسه ، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلم أظفاره واضطره إلى السلم والموادعة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هيأ نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقاماً والتهمه التهاماً ، وقطع الوسائل

بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يمضى للقائهم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون فى الطريق ؟ ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئات قد انتثروا فى الطريق ، منهم من جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً ومنهم من استخفى فى الحقول واختبأ فى المزارع ، منهم من يظهر مظهر الغول كريهاً مخيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ، وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه اللاجئ إليه إلا غدراً ولا يظفر عنده الواثق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتى نبذتهن الأسرة أو اجتثتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقذفهن من مكان إلى مكان ، وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهى بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول المتنكر ، فإذا هن فريسة لهذا أو لذاك ، يلقين العار والخزى ، ويلقين البؤس والضيم ، ويلقين المرض والشقاء ، ويلقين الألم دائماً ، وقد يلقين الموت أحياناً . . . ؟ !

لم تفكر آمنة فى شىء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتها كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضى كما يمضى السهم لأنها لم تكن تفكر إلا فى سجن قد أفلتت منه وهى تريد أن تبعد عنه ، وفى حرية قد دفعت إليها وهى تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهى تمضى وتمضى لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التى تتحدث بها الجدات والأمهات ، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشيط ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التى تنشط من حولها ، وإنما هى مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذى أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضى مبطئة وتسعى هوناً . ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية من القرى فمالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة وشيئاً من طعام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأرانى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة ، وإلا جسمى النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية ، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر ، ولا عمن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية

والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت آمنة . . . ؟ لا أدرى ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل الدار وأشاركهم فى شيء ، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس الفاجرة والقلب الغليظ ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقريبه إلى وترضيه لى ، فيمتلئ قلبي أمناً وهدوءاً وتبسم لى الحياة عن أجمل الصور وأحفلها بالأمانى والآمال ، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يدركنى الإعياء ولا ينالنى الكلال . ثم كنت أذكر أختى ولا سيما بعد أن عبرت البحر وأخذت الطريق تختلط على ، وأخذت أحاول أن أتعرف أين انحرف بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه .

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم أن أسعى إليها وأن أمسها بيدى وأن آخذ معها فى الحديث ، وإذا أنا أتنبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة ، وإذا ينابيع الحزن تنفجر فى قلبى وإذا الحزن يجرى مع دمى ، وإذا جسمى كله نار مضطرمة ولوعة محرقة ، وإذا دموعى تنهمر على خدى ، وإذا أنا مضطرة إلى أن أنتبذ ناحية من الطريق لأبكى على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسعى ، وإذا أختى تسايرنى ، وإذا الظلال التى كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء من حولى لا أدرى أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ، ولكنى أراها تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغط حتى أخاف على نفسى الجنون .

انا على ذلك كله ماضية تتقاذفنى القرى وتتدافعنى الضياع ، أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول مرة وأعمل فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبى ويتعاقبان على نفسى لا يمهلاننى فى اليقظة ولا يعفياننى فى النوم ، أنا مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً ، وبين أختى وصاحباتها اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعى . وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك غاية أعرفها وأسعى إليها، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعنى إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غايتى إلى يمين أو إلى شمال إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً فى هذه القرية أو تلك ، ولكنى على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو الشرق دائماً ، ممعنة فى الشعور بالأمن كلما ازددت من الغاية دنواً ومن المدينة قرباً . فالمدينة إذن هى غايتى من كل هذا السعى ، فيها ألتمس الأمن، وبين أهلها ألتمس الحياة الوادعة! وبيت المأمور هو غايتى من المدينة إليه ألجأ وإلى من فيه أفزع وبمن فيه أستعين ، فى ظله أريد أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبى ، وعند خديجة من أهله خاصة أريد أن ألتمس الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ،ولن أبل من علتى حتى أرى هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتى مع الخدم والسادة كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشئوم . إذا بلغت هذه الدار فستقصر يد خالى دون أن تبلغنى ، وإذا اطمأن بى المقام فى

هذه الدار فلم يجد الروع إلى نفسى سبيلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إن سألونى أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . . وبم أجيبهم ؟ أأقص عليهم حديثى كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار وماخطبي إن رأونى فأنكرونى ثم أبوا أن يفتحوالى بابهم وأن يلقونى بماأحب أن يلقونى به من الرضا والعطف والابتسام؟ ما خطب خديجة وما خطبي إن رأتنى فأعرضت عنى لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيها كما كنت ألهيها ، ويشاركها فى الجد واللعب كما كنت أشاركها فى الجد واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت بى هذه الدار ، وإلى من ألجأ وعلى من أعول إذا تنكر لى أهل هذه الدار ؟

١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ، ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف . وإنى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعونى ملحة فأستجيب للدعاء . وإنى لأرى دخاناً يصدر عنها وينتشر فى الجو فلا أتمثل النار التى يصدر عنها فى المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويجيئون وأسمع ما يقولون ، وكأنى أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإنى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأنى أشاركها فى اللعب أو أشاركها فى الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإنى لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتنى وكأنى قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً فى هذه الحياة التى تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهأنذا أبلغ باب الحديقة فلا أتردد فى ولوجه ، وأمضى أمامى مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالى التى كنت أقضيها مع أمى وأختى فى ذلك المنزل الحقير ، وإنى لأمضى كما تعودت مسرعة لا ألوى على شىء ، وإنى لأصعد فى السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإنى لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدتى وصديقتى عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكنا كنا نلتقى على الضحك والعبث فمالنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ؟ ! أما هى فواجمة ذاهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فمغرقة فى البكاء .

ثم هى تسألنى : أين كنت . . . ؟ ومن أين أقبلت . . .؟ وماذا صنعت فى هذا الوقت الطويل . . . ؟ وأنا لا أجيب . وأنَّى لى أن أجيب بغير هذه الدموع التى تنهمر ، وهذه الزفرات التى تنفجر ، وهذا الشهيق الذى يتردد فى حلقى متصلا بعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهى بى إلى أزمة من هذه الأزمات التى تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . !

وسيدتى وصديقتى قد أقبلت علىّ فتتلطف لى وترفق بى وتهوّن علىّ بعض ما أجد ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد . ثم يسمع

الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً ولا وجوماً من ابنتها ، ولكنها تصرف الفتاة عني صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤذي نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعوني إلى أن أتبعها ، ثم تهدئ روعي وتتلطف لي في الحديث وتسألني عن أمري فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هي جمل متقطعة غارقة في الدموع فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره ففقدنا أختي ، وفيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل ، وحنين إلى السادة الذين لم ألق في خدمتهم إلا خيراً وبراً ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهمار للدموع وانكباب على سيدتي أقبل يديها وقدميها كأني أشفق أن تردني رداً أو تدفعني عن الدار دفعاً ؛ ولكنها خدبة عليّ ، رفيقة بي ، تقيمني وتنهضني وتأمرني أن أذهب إلى حيث أصلح من أمري وأستأنف عملي في الدار ، كأني لم أفارقها أشهراً ، وكأني لم أفارقها فجأة في غير استئذان ، وكأني لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدي ، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ، ثم ما هي إلا أن ألقى الخدم ويلقونني بشيء من الدهش والوجوم ، وآخذ في بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فراق .

ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة عليّ ووجدها بي ، وإبائها على أهلها

أن يتخذوا لها خادماً غيرى ونزول أهلها عند ما كانت تريد .

ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحياها من قبل . ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون ، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك لا يكادون يشعرون بأنى فارقتهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقتهم وقتاً طويلا ، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فىّ ولا يسألون عنى . ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة فدفنتها هناك فى قرية بعيدة من قرى الريف تظلها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت منهم آمنة الضاحكة فى أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ؛ أخذت منهم آمنة الغرّة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شىء ، والتى لا ترى فى الحياة إلا لعباً ، والتى تخدم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

الهم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقالا وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ؛ أخذت منهم آمنة التى كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات فى الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم آمنة هذه ففرّقت نفسها تفريقاً ، فى الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها فى بيت العمدة الذى ضيّفنا حين سمعت لحديث أختى وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التى كانت تتراءى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضى بنا الحملان فى الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وثقل ، ثم تركت أكثرها فى ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذى سال ، ودفن مع الجثة التى دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهباً لتلك العلة التى ذهبت بما بقى من نفسى وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمى أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلا قليلا . أخذت منهم آمنة هذه وفرّقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك فى بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقى من اعتدال القامة ، وقد تشبهها فى طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك فى كل شىء .

رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجمة فى أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التى رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً ، فملأت نفسها من هذا كله وإذا هى سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الحالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تنصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويلح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألفوني كما عرفوا تلك الفتاة وألفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصاب العظيم الذي قد ألم بنا فملأ قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزونني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلي كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلي كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة مرحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة . إنها لتفهمني في غير سؤال ، إنها لترحمني في غير تكلف ، إنها لترثى لى في غير كبرياء ، إنها لتنصرف بي عما ألفت من فرح ومرح ومن دعابة ولعب ، إنها لتتحدث إلىّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها تشغلنى عن همى بما تقص علىّ من أمرها أثناء غيبتى وبما تقرأ علىّ مما قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤنى مما لم أشاركها فى قراءته ، إنها لتفتح لى أبواباً ما كانت لتخطر لى على بال . إنها لتنبئنى بنبأ عجيب لم أفهمه إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تنبئنى بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟ إنى أعرف أن هناك لغة الريف التى كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التى تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة نقرؤها فى الكتب فلا نعجز عن فهمها وإن وجدنا فيه بعض العسر . فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لى كتباً ما كنت أقدر أن أراها ، وإنى لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإنى لأحاول النظر فى الحروف فلا أعرف لها أولا ولا آخراً ، ولا أعرف لها رأساً ولا ذيلا ، وإنها لتضحك فى رفق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة فى هذه الكتب فتبلغ من ذلك ما لا أبلغ ، وإنها لتترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية وأدهش وينتهى بى الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد عليه

بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هى تقرؤنى هذه الحروف التى لم أكن أقرؤها ، وتعلمنى هذه اللغة التى لم أكن أعلمها ، وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى المساء ، وإذا المعلم بارع وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أى عزاء ، ونسياناً أىّ نسيان ؟ وإذا الأستار تلقى شيئاً فشيئاً بينى وبين هذا الماضى البشع القريب ، وإذا كل شىء فى هذا الماضى ينمحى قليلا قليلا إلا شخصين اثنين لا ينمحيان ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان فى نفسى ارتساماً قوياً ويتمثلان أمامى تمثلا متصلا ملحاً ، وهما شخص أختى صريعاً يتفجر من صدرها الدم فى الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرعت فيه .

١٤

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت . وهل ذاقت البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى جنتها فى هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفعت

حين هبطتْ من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طيباتها ما رقق لها العيش وقد كان غليظاً ، وحبب إليها الدهر وقد كان بغيضاً .

فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأسرعت إلى ما كان يتراءى لها من ذلك جاهلةً له ، مفتونة به ، متهالكةً عليه ، ثم انصرفت كارهةً عما بلتْ ، وما أدرى ماذا كان يحزنها ويمزق فؤادها تمزيقاً حين كانت تقص علىّ أنباءها وتحدثني بأحاديثها : أهو الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم ؟ وما أدرى ما الذى كان يملأ قلبها فرقاً ورعباً حين كانت تتراءى لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذى كانت ترى نذيره منكراً بشعاً ومسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذى كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تُجتاز ؟

نعم! هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه فى نفسى ارتساماً قوياً ملحاً ليس إلى محوه من سبيل. ولقد كنت أرى أختى فإذا هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التى كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لى فى الطريق ! بل لقد تفرقت عن أختى كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذى لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسى اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور فى قلبى شعور قوى مختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف والرغبة ، وفيه البغض ، وشىء يشبه الحب ، أو حبّ الاستطلاع على أقل تقدير . .

مَنْ هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟ أى شيء فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى أن يكون حظى منه إن لقيته ، وأن يكون حظه منى إن لقينى ؟ أوَ أحبه أم أبغضه ؟ أيحبنى أم يبغضنى ؟ ما هذه الغواية التى أفسدتْ على أختى أمرها وأفسدت علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أختى بالموت ونغصت علينا جميعاً لذة الحياة ؟

خواطر كانت تملأ قلبى إذا أصبحتُ ، وكانت تملؤه إذا أمسيت ، وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا فى شيء من الجهد والعنف حين تلح علىّ خديجة فى الحديث أو فى القراءة أو فى مشاركتها فيما كانت تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبى فى اليقظة ، وكانت تملؤه فى النوم ، وكانت تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التى سُفك دمها فى ذلك الفضاء العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب ؛ وإلا هذا الفتى الذى ما زال يغدو ويروح فرحاً مرحاً ، مغتبطاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتنى أدرى أيذكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليتنى أدرى أيذكرها إن ذكرها فى شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها إن ذكرها فى إعراض الزاهد وانصراف المزدرى ! وأين تكون هذه الفتاة من نفسه ، وما أكثر الفتيات فى نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل شيء ، ولم تكن هى بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها كثيرات . لم تذق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التى ذاق هو فيها لذات الحياة ! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما بلا من صنوف النعيم ! وليتنى أعرف كيف يلقى ذكرها إن ذُكرتْ له : أيبسم

لصورتها أم يلقاها بالعبوس ! بل ليتني أعرف كيف يلقى النبأ البشع المروع إن ألقى إليه : أيحزنه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها إليه ، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير فى قلبه حزناً ولا أسفاً ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت ألتمس الفرار منه فلا أظفر به إلا فى جهد أى جهد وعناء أى عناء ، وحتى لقد أنكرت نفسي وأنكرت مَنْ كان حولى من الناس والأشياء ، وأنكرنى من كان حولى حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ، إلا خديجة فإنها لم تنكرنى ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة بى عطوفاً علىّ ، تعزيني وتسليني وتفتن فى ذلك ما وسعها الافتنان . وأنا أعرف لها هذا فأحمده وأقدره وأردّ عليها بعض ما كانت تسدى إلىّ من جميل ، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، ويفرغ قلبي لما أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هى منى ذلك فتنصرف عنى بعض الشيء وتتركني لما أنا فيه ، كأنها تقدر أنى أجد فى هذا الوجوم والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح على وتستأثر بى حتى تستحيل إلى شيء من الرغبة القوية الملحة فى أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا أتلمس أخباره وأتتبع أسراره وأتلقط ما يُلقى عنه من حديث . ولم تكن داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد ائتمرت بى فهيأت لى أن أرى ذهابه ومجيئه من نافذتى حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه النافذة التى طالما كنت أبادل أختى منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التى لم أذكرها ولم أدنُ منها حين عدت إلى الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلا وأهملها إهمالا . ثم خطرتْ لى فجأة وفُرِض علىّ مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنو منها وجلة وأفتحها جزعة محزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادى » ذاهبة جائية ، متغنية بما كانت تتغنى به من أغانى الريف ثم أغانى المدينة . وإنى لآخذ موقفى من النافذة فى الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختى لا تأتى من الدار ولا تعبر إلى ما بينى وبينها من طريق ، وإنما تأتى شاحبة حزينة من قلبى هذا الآسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو منها كلما أتيح لى الدنو فى النهار حيناً وفى الليل أحياناً . آلفها وتألفنى ، حتى أصبح وقوفى منها وجلوسى إليها عادة طبيعية من عاداتى كلما دخلت الحجرة وأغلقت بابها من دونى . والأيام تمضى وتتبعها الليالى ، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لى صورة أختى شاحبة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامى وأنظر ، فإذا صورة أختى كما كنت أعرفها تذهب وتجىء . صوت أختى ينتشر فى الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التى طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلىء العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يا نا ياانا من غرامـــه يا نا   وإن كنت أحبه ما علىّ ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ، إن كان الناس يفهمون منها شيئاً ؛ فهى شائعة ذائعة فى المدينة وفيما حولها من القرى تسمعها فى كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل

صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإنى أتمثل أختى كئيبة حزينة يائسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر فى الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقته إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرقتها تفريقاً ؟ ! مالى أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعانى والمرامى والأغراض ما لم يكن يخطر لى من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التى يرسلها الصدى النحيف ممتدة ضئيلة لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهى ، لتثير فى نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لى بها عهد . وإن هذا النداء ليصور لنفسى الأنين كما يصور لنفسى الاستغاثة ، وكما يصور لنفسى اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا الاعتذار ليصور لنفسى الهيام فى غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه ليصور لنفسى جرم هذا الخال الأثيم الذى سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يبرئ هذه المحبة الهائمة من اللوم ، ولم يعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ؛ لأنه جامد القلب جافى الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يذق لذة الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإنى لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع بجماله حتى أصبح فتنة

لا تتقى وسحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب وحبالةً تختلس النفوس ، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها سبيل. وإنى لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمامى صوراً ثلاثاً: صورة هذا الفتى الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه، وصورة هذا الشيطان الآثم المريد يأخذ بالإثم ويعاقب عليه، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء المضنى والعقاب المفنى. ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسى أين أنا منها ؟

أما خالى فإنى أبغضه بغضاً لا حدّ له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً .
وأما أختى فإنى أرثى لها رثاء لا حدّ له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة .
وأما هذا المهندس الشاب فما أدرى أين يكون مكانى منه : أهو مكان المبغضة العدو أم هو مكان المحبة الهائمة ؟! إنه النار المضطرمة ، وإنى الفراشة التى تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكونن لى منه مكان لم أكن أقدره . لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم !

ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب ، وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوت ، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا الشاب محتوم إن لم يتمّ اليوم فسيتمّ غداً .

١٥

ولزمتُ النافذة أرقب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ، كأنما وُكلت بحراستها أو تتبع ما يجرى فيها . وما هى إلا أن أعرف مواعيد غدوّ الفتى ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا

انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة فى هذه المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسى لأمر من الأمور أو عمل من الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائحاً بعد الظهر. فإن حيل بينى وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبلى فهى الحياة المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرد ، والقلب الذى لا يهدأ ولا يستقر .

ثم يشتد الأمر بى وتلح الرغبة فى هذه المراقبة على ، وإذا أنا أتلمس الأيام التى لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها أمام النافذة أترقب ما أرجح أنه لن يكون ، ولكنى أترقبه على كل حال لأنى لا أريد أن يفوتنى مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتى اتصالا ، ومدت الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبى ونفسى وعينى ، فهى لا تبرح خاطرى مهما تكن الظروف ، وهى تجذبنى إلى النافذة جذباً . وأنا أحس مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتى من غير شك لا تجذبنى الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبنى الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أنى أرسلت نفسى على سجيتها وخليت بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم ، ولكنى دافعت نفسى عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسى فى الاتصال بها جدالاً طويلاً ، وظفرت من هذا الجدال وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم أسابيع بل أشهراً لست أدرى أكانت طوالاً أم قصاراً ، ولكنى أعلم أن أحتمالها كان ثقيلاً ، وأنى كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة ستتم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم

والإذعان . وأمضى مع ذلك فى جهاد نفسى ومدافعتها . حتى إذا استقر كل شىء وُغلِّقت الأبواب ، وانقطعت سبيلى إلى الدار ، اضطررت إلى أن آوى إلى مضجعى ، وسجلت لنفسى يوماً من أيام النصر وأمداً من آماد الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإنى لأرى نفسى ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، وإنى لأرانى خارجةً كالمنسلة من دار المأمور ، ساعيةً كالهاربة التى تحرص على الاستخفاء ، أدور حول الدار مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد قليل ، ثم منطلقةً كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألجُ حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئةً مضطربةً معاً نحو البستانى كأنما أريد أن أسأله عن شىء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ، وإنما وقفت أمامه ذاهلةً غافلةً بلهاء يملكنى الخوف ويغمرنى الحياء . أريد أن أمضى أمامى حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادى » فأقضى فيها لحظة أو لحظات ، ولكنى لا أستطيع أن أتقدم ، والبستانى يسألنى من أنا ومن أين أقبلتُ وماذا أريد ؟ فإذا ألحّ علىّ فى السؤال وأحسست أن صمتى يطول وأن الرجل سينتهى إلى الضيق بى وبما أعرض عليه من غفلة وبله وذهول ، وليتُ مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألوى على شىء ، كأنى أخشى أن يتبعنى تابع أو يتعقبنى متعقب . وما أزال أشتدّ فى العدو حتى أبلغ دارنا فأنسلّ إليها لم يشعر بخروجى منها ولا بعودتى إليها أحد . ثم أمضى متجاهلةً متغافلة حتى أبلغ غرفتى وآخذ موقفى من النافذة وقد سجلت على نفسى بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية .

على أنى ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستانى والاختلاف إليه ، والأخذ معه فى أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومسارقته بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بينى وبين هذا البستانى حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندى واضحاً معروفاً : أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثلى أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقربين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستانى وإنما تجاوزته إلى الخادم ؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتفى ببستانيه ، وإنما هو فى حاجة إلى خادم تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختى لم تكد تفارقه حتى تعجل البحث عمن يخلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوادعة ذات الوجه المشرق والجسم البض والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى « سكينة » هذه التى أقامت عنده خليفة لأختى ، والتى كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد فى الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو . ولكنى مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بينى وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن فى هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست فى نفسى عداوة آثمة تشتد كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبى وتملك على كل أمرى وتكاد تخرجنى عن طورى وتدفعنى إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت — وليتنى لم أفهم — أن سكينة لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ،

وإنما خلفتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلفتها على هواه ومجونه وعلى إثمه وغوايته ، وما أكثر مالهذا الشاب من الهوى والمجون ، ومن الإثم والغواية! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبالا ويختلبهن اختلاباً ، يصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهده فيهن خلى بينهن وبين ماينتظرهن من الموت أو من حياة هي شر من الموت .

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يُنفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتُسلى به الغربة فى مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقى جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاق حظه من هذا الجزاء فى يوم من الأيام ، ولاقيه من يد آمنة هذه التى شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدى على أختها من يد ذلك الخال الأثيم فى ذلك القضاء العريض ، وشهدته حين عُدِىَ على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوى وفى هذه الدار الصغيرة الأنيقة التى يقوم عليها البستانى وتضطرب فيها سكينة كما كانت تضطرب فيها هنادى .

أغيرةٌ هذه التى تضطرم فى قلبى اضطراماً وتحبب إلىّ التفكير فى الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحبب إلىّ التفكير فى الخناجر التى تمزق الصدور وفى السم الذى يمزق الأحشاء؟ أغيرةٌ هذه التى يغلى لها الدم فى عروقى ويصعد لها اللهب فى وجهى وتقدح لها عيناى بشىء كأنه الشرر ،

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظرى وعلى أن يتساءلوا ما خطبى وإلى أى حال سينتهى بى ما أنا فيه من الذهول ؟!

أغيرةٌ هذه التى زادت الحزن عن نفسى وأقامت مكانه غضباً ثائراً متصلاً لا يهدأ ولا ينقضى ؟ ولمن أغار أو على من أغار ؟ أغائرةٌ أنا لهذه الأخت البائسة التى ذاقت الموت فى سبيل هذا الفتى دون أن يكون لتضحيتها أهلا ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التى كانت تملأ نفسى وتملك قلبى وتدفعنى دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتى لم تكد تبلغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟ أغائرة أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلا للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة وعلى من هذه الغيرة ، أو إلام تريد أن تنتهى بى هذه الغيرة ؟

لا أدرى ! ولكنى أعلم أنها قد جعلت مقامى فى دار المأمور عسيراً وعشرتى لخديجة شاقة ! فقد توحشتُ أو كدتُ أتوحش ، وأصبحت نافرة من كل شىء حتى من خديجة التى لم أكن أظن أنى سأعرض عنها يوم من الأيام . وقد أخذتُ أحس أن مُقامى قد أخذ يثقل ، وأن عشرتى قد أخذت تشق على من حولى ، وأن خديجة قد أخذت تجزينى جفاء بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا آمنة! إلامَ تدفعك هذه النفس المضطربة التى لا تهدأ ، وهذه العواطف الثائرة التى لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذى لا يعرف ما يريد ؟!

١٦

وأصبحتُ ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب فى جو الدار أحسه ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألمحه فى وجه المأمور وفى وجه ربة البيت حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب ، وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر مما تعودت أن تطول . وألمحه فى هذا الابتسام الذى يهديه المأمور سخياً كريماً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلطفاً لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفى نظرات طويلة يلقيها على أنا حين يلقانى ، وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألمحه فى هذا كله ، ولكنى أجد فيه غموضاً يثير ميلى إلى الاستطلاع ، ويكاد يسلينى بعض الشيء عن المهندس الشاب وعما يقع فى داره من خيانة وإثم وعما يثير فى نفسى من غضب وغيرة . وأهُمّ أن أسأل خديجة عن هذا الذى ألمحه ولا أستبينه ، ولكنى أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً فأعرض عما هممت به وأكتفى بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم يطل ، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة فى دار المهندس الشاب تستتبع حركة فى دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث مسرعة ، وإذا هى تملكنى وتغمرنى وتستأثر بى وتنسينى كل شيء وتذكرنى بكل شيء فى وقت واحد

وتخرجني من هذا السكون اليائس الذى لزمته إلى نشاط يائس دفعت إليه دفعاً .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تتهيأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهى تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث .

والبستانى مسرف فى الحركة مندفع فى النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه فى النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبتهجة ولا مبتسمة ، وإنما هى تذهب وتجىء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة فى بيت المهندس قد أثارت حركة فاترة متقطعة فى بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائد تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلفنى راضية باسمة أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب ، وأن أعنى بأن تهيأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد فى بيتها لتهيئة الطعام الذى سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التى ستقام فى دارها إذا كان اليوم الذى يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وآخذ مع الخدم فى العمل والحديث

حتى أعلم — وليتنى لم أعلم — ، وأفهم — وليتنى لم أفهم — أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هى زيارة تتم لأمر يراد ، فستخطبُ بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفراحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ؛ فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى عاصمة الإقليم والذي يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى يقيم فى أقصى الإقليم نحو الشمال والذى ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ مذكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لاتتجاوز المدينة إلا قليلا . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ؛ ولكنهم سيسمعون لمغنٍّ يأتى من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المغنيين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولائم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون فى ذلك ، ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الريفى الساذج الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى مكانه لم يتجاوزه أو لم يكد يتجاوزه إلا قليلا .

كانوا يفيضون فى الحديث عن المغنى والمغنية ، وفى الحديث عن الطهاة

الذين سيهيئون الطعام ، وعن الفراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التى ستأتى من القاهرة فتقضى فى المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد، وفيهم البشاوات والبكاوات ، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر .

كانوا يفيضون فى هذا كله ، ويجدون فى الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعى أقلها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بد من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الخيانة تنظيما ، ويريد أن يأتيها ويقدم عليها ويمضى فيها جهرة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن تكون سكينة هذه الغافلة البلهاء التى لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه ومجونه وإثمه ، ولكن التى تخلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندى وأحسنهم مكاناً من قلبى ، خديجة التى أجد عندها — وعندها وحدها — العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بى من مكروه ، خديجة التى أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذى أصابنى فى أختى وفى أهلى ، هذه هى التى ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغى لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه

بذلك الدم الزكي الذى أريق فى ذلك الفضاء العريض !

ولم أكن أسأل نفسى كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة حين يلقى إليها : أتنكره وتضيق به ، أم تحبه وتبتهج له ؟ ولم أكن أسأل نفسى كيف تجد خديجة موقفى منها حين أحاول أن أصدّ عنها حب هذا الرجل الآثم وأن أردّها عنه ، وأن أبذل فى ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شىء من هذا ، ولكنى كنت ثائرة أشدّ الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ، مصممة أشد التصميم على ألا يكون مهما تهيأ له الظروف ومهما تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت تجيش فى صدرى وتبعث فىّ هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفية لأختى بالعهد مشفقة على حقها أن يضيع ، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه ، مقاومة فى سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلة أخفى بها على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه ، وأستر بها دون قلبى ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شىء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسى عن شىء ما ، وإنما كنت أفنى قوتى وجهدى وتفكيرى فى أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذى يدبر وهذا الكيد الذى يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لى أنى أحمى خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب ، وأضن بها على أن تبتذل لهذا المجرم الآثم الذى لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرجو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامى دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذى يوشك أن يلم بها فرض يأخذنى به الوفاء لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من جميل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسى مجتمعاً مؤتلفاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة ، فإذا هو أمامى مرآة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلىّ صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية فى سبيل الأخت التى اغتالها الخطر ، والصديق التى يوشك الخطر أن يغتالها .

ولو أنى حولت وجهى عن هذه المرآة بعض الشىء فى ذلك الوقت ، ولو أنى نظرت فى نفسى ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أنى تعمقت قلبى وتبينت قرارة ضميرى ، لرأيت شرًّا يا له من شر ، ولشهدت هولا يا له من هول ، ولعرفت أنى لم أكن أفى لأختى ولا لصديقى ، وإنما كنت أوثر نفسى بما أراه خيراً وشرًّا ، وأقف هذه النار المضطرمة المتأججة على نفسى وأحميها من أن يحترق بها أحد غيرى !

نعم ! ولكنى لم أكن أنظر فى نفسى ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذى يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذى كان لأختى منذ حين والذى يجب أن يكون لى بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمرى شيئاً ، ولم تغير من شكلى ولا من نظام حياتى الذى ألفه أهل الدار قليلا ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأفتر ، كما رآنى أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يرونى فى الأيام الأخيرة . فقد ذهب عنى الذهول ، وفارقنى الوجوم ، واستقرت عيناى وهدأتا واستقامتا ، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التى كانت تخيف منى وتثير فى النفوس من حولى شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لسانى بالحديث ، بل تردد الابتسام على شفتى ، وأخذ الإشراق يترقرق فى وجهى من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد فى أن هذا الفرح الطارئ قد شفانى مما كنت أجد ، ورد إلى ما كان قد فارقنى من اعتدال المزاج .

ثم نصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولى فى مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدى بلوعة لا تنقضى وحزن لا تخمد ناره .

يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهن فى التلوين ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسى ، بل أكبرت المرأة فى نفسى حين رأيتنى أضطرب فى هذا التمثيل وكأنى أضطرب فى الحياة الواقعة لا يأخذنى أحد

ولا آخذ نفسي بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفي ما أخفي وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما أتنفس وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتي ما تدفعني الغريزة إلى أن آتي به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لي من الخطب وبعض ما ألم بي من الهم كان خليقاً أن يحول بيني وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة ، فضلا عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب .

١٧

وانتهى النبأ إلى خديجة ، كما تنتهي هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقى إليها ويستر عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتبتهج له نفسها وتستحيي مع ذلك من أن تتحدث فيه ، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكآبة والحزن كلما ذكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد ، وأن تفر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جلياً. على أن صديقتي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد آثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تخف علي ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إلي وما أكثر ما تحدثت

إليها فى أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التى لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته ! وما أكثر ما أغرقنا فى الأمل ومضينا مع الخيال ! وما أكثر ما فصّلنا الأمور تفصيلا ، وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التى ستشترى ، وعن الحلى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأتقنا إقامتها إتقاناً !

وأنا فى هذا كله أجارى صديقتى مجاراة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة فى أنى أشاركها فى أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً فى أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس فى الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة فى دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث فى الدرس الذى لا بد من أن نمضى فيه ، وفى القراءة التى لا نستطيع أن ننصرف عنها ؛ ونرتب أمرنا على أنى سأنتقل مع خديجة إلى حيث تكون ، وسأشاركها فى حياتها مهما تكن الظروف . وما الذى يمنع من ذلك وما دخلتُ هذه الدار إلا لها ، وما عملت فى هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت فى يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفونى بما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا فى هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين

تهيأ لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تمتاز به ليالي الريف ! ولكن نفسي في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت ثائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذي يحتوي نفسين متناقضتين أشد التناقض: نفساً تبتهج وأخرى تبتئس ، نفساً تعد وأخرى توعد ، نفساً تمضي في الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضي في تدبير ما يحزن وينفع .

وتنقضي الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التزاور ، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والجلاء ، وتتنفس أهل الدارين في جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذي تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكني أجدني في ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر في الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذي ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقي على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجري في الأصوات الفرحة نغمة لا تخلو من كآبة ، أجدني في ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستأذن ، ثم أغلقت الباب من دوني لا أستأذن ، ثم وقفت واجمة بين يدي سيدتي لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر

الدموع غزيرة على خدى ، وسيدتى تنظر إلىّ فى غير إنكار وفى غير لوم ، كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائى ، فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى وبينها حائل ، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأنى أحسن حظّاً منها هى ! فهى مضطرة إلى أن تفارق ابنتها ، أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديقى . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى نفسى ، فما لهذا الحديث أقبلت . وما حاجتى إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة ! ومتى استطاعت ربة البيت أن تفرق بينى وبين ابنتها فى جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلته فى صوت هادئ تبله هذه الدموع المنحدرة المنهمرة . وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأنى قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب . ولكنى قد أتممت ماأردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم هممت أن أنصرف خجلة مستخذية ، ولكنها وقفتنى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئاً ولا تلقى إلى لحظاً ، ثم قالت فى صوت عادى متزن : وهل أنبأت خديجة من هذا بشىء ؟

قلت وقد أغرقت فى البكاء : كلا يا سيدتى ! وما ينبغى لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنى

أوثر خديجة وأوثر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء ، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التي تعيش في بؤسها المظلم في أقصى الريف .

قالت وقد نهضت إليّ متثاقلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع سر أسرتك . ثم ضمتني إليها وقبلتني وهي تقول : لقد أنقذت ابنتي من شر عظيم .

١٨

قلت : نعم يا سيدتي ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك ترين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء يأمرني بالتحول عنها . قالت وقد أحسست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصدةً متعجلة مضمرة أني إنما أتحدث لأعتذر عما سآتي من الأمر : لم أتعود يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئاً أو أكتم من دونها سراً ، وما ينبغي بل ما أستطيع أن أبقى معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاي عندك وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي بدئ فيه قد أهمل وعدل عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن نفسي حين أحاول ما يجب عليّ من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل . وما دام الله قد قضى عليّ الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريدين أن تذهبي ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولا ، فأما إلى أين

فشىء سأستبينه بعد ذلك . . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدةً عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك ، ألحظ من كثب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتنقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداء أو شيء يشبه العداء . ولم أجد فى ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التى تحدثت عنها فى أول هذه القصة ، عند زنوبة تلك التى عرفتها فى بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر ، فألفيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الحب ، وأمامها نسوة يشترين منها : هذه تشترى القمح ، وهذه تشترى الذرة ، وهذه تشترى الفول ، هذه تشترى نقداً ، وهذه تشترى نسيئة ، وزنوبة تحتكم فى هذه وتلك صائحة مسرفة فى الحركة ، لا يستقر لسانها فى فمها ، ولا يستقر وجهها أولا يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال ، فهى عابسة حيناً ، وباسمة حيناً ، وهى تفعل بعينيها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهى تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهى تلمح حيناً وتصرح حيناً آخر ، وهى تمضى فى ذلك والنسوة يسمعن لها راضيات عنها معجبات بها ، مشاركات لها فى بعض ما تقول وفى بعض ما تأتى من الحركات ، وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون ويسمعون ، ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها الدعابة والرضا ، وفيها اللذة والإعجاب .

فلما رأتنى زنوبة لم تنكرنى ، ولكنها لم تغل فى الترحيب بى ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت فى صوتها النحيف : ها أنت ذى تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا فى بيت العمدة ، ولكنى كنت أنتظرك ، وما شككت فى أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين منى هذا المقام . قلت : فهل أنبأك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أنبأنى من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخففى من حقيبتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلى الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد ، وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك تأكلين فى كل وقت . هذا شأنكن أيتها الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شىء آخر . ومن يدرى ! لعلكن تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد فى السلم إلى الغرفة التى دلتنى عليها ، ولكنها تبعتنى مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت تقول : اهربى ، اهربى ، وجدى فى الهرب ، إن أذنيك النقيتين البريئتين لا تستطيعان أن تسمعا لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه . لن تخدعينى وإن استطعت أن تخدعى غيرى ؛ فإنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفى شر منه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تتصنعن الحشمة وتتكلفن الحياء . على أنها لم تمض فى هذا اللغو إذ لم تأنس استماعى لها وانصرافى إليها فمضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لى بعد ساعة ، فأقبلت علىّ هادئة باسمة ، تسألنى عن أمى وأختى وأجيبها عن أسئلتها بما أريد، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب ثم قالت : وأنت الآن تريدين العمل ، فأين تحبين أن تعملى ؟ وكيف تريدين أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا الوضىء ، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويخلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعينى من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستعينك على شىء ، وإنما ألممت بك محيية لك قبل أن أترك هذه المدينة فإنى عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينيها وأسبغت على وجهها شكلا مضحكا تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء ، وأرسلت من فمها شهيقاً منكراً أتبعته بشخير منكر ما أشك فى أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا ، فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملأنى خزياً واستحياء ، قالت : لا تُراعى لاتراعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكنى أعرض عليك ما عندى . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندى غير هذه البضاعة ، ولكن ثقى يا ابنتى أنك راجعة إلىّ فطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكونى الأخيرة . . . تريدين عملا كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر ؛ فقد أحب أن

أعلم من أمرك جليه وخفيه لأوصى بك عن علم . أخرجت سارقة ؟ أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب؟ أم خرجت لكثرة الصياح؟ أأغضبت سيدك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟ أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟ وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور ؟ وأنت تخرجين في الوقت الذى يستعد فيه البيت للأفراح والليالى الملاح ، وتنزلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات ! فليس من شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟ تكلمى ! إنى لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في التمنع والإباء والكتمان ، فما تخفينه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزنوبة إن خفيت علىّ أسرار فتاة مثلك لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار الأسر التى تقيم فيها أو تفد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثى ! كيف خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهمر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعنى إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبتى فأحملها وأمضى نحو السلم ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيبتى قد خطفت منى خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتنى بذراعيها المنكرتين ، وأخذت

تلحّ عليّ بالضم والتقبيل تهدئني وترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشدّ الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشدّ السخط ، ولو استجبت لنفسي لصحت مستنجدة طالبة الغوث ؛ فقد أخذت أمقت نفسي وألومها ، وألعن هذه اللحظة التي خطر لى فيها أن آوى إلى دار هذه المرأة ريثما أهيئ أمرى بعض الشيء وأدبر لى عملا أمضى فيه .

ولكن زنوبة ملحة عليّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب حديثها ، وأخذت تتحدث إليّ بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ، كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوءنى أو يروعنى أو يقلقنى عن هذه الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لابد من أن يطول فيها مقامى أياماً أو أسابيع.

ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل فى حديث هادئ فيه الجد وفيه الهزل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت فى هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبتها فى شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف فى صاحبتها من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترثى لصاحبتها أو تتخذ الرثاء مظهراً من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن نشترك فى البكاء ونتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين فى الضحك ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذى يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

احتفظ بشيء من الاحتياط . . فلم أظهر زنوبة على سرى ، ولكنى أنبأتها بأن أختى قد قضت فى الغرب ، وزعمت لها أنى إنما خرجت من بيت المأمور فى إثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما كنت أرانى أهلا له من الإنصاف . وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنبت الجدال والإلحاح فيه ، وأظهرت الرثاء لى والعطف علىّ ، ووعدتنى بأنها ستجد لى عملا شريفاً مريحاً إذا كان الغد ، وألحت علىّ فى أن أقضى الليل معها وقد فعلت ، وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل فى مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلىّ متهللة مشرقة الوجه وهى تقول : لقد وجدت عملا ما أشك فى أنه سيرضيك . ستعملين حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحلن عن المدينة فى بيت فلان ، أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الثراء واليسر ، وقد لا تجدين فى داره مثل ما كنت تجدين فى دار المأمور من الترف ، ولكنك ستجدين عنده سعةً ويسراً ، ودماثةً فى الخلق ، وتبسطاً فى المعاملة ؛ فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يضن ببناته على هذا الفساد ، ويرسل أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصبحت أيام الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش . وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبناءها وبناتها ، وقد تبنيت منهم واحداً بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف لى هذا الحق ويحبنى ويكرمنى ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت : وكيف تبنيته ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبينى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت ذيلى ، فأصبحت كأنى والدته ، وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على حق الأبناء . ستعملين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ؛ فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت فعرفتك وعرفت أمك وأختك وقبلتك راضية مسرورة ، فهلم بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست أخفى عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطب نفساً عن تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أمك وحمدت عشرتها . فهلم بنا فقد تتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيننا الحديث .

ونهضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت فى النصح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعيننى يوماً ما على تحقيق ما أريد .

١٩

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التى يظهر فيها الثراء ، ويحسّ أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية التى لا دقة فيها ولا رقة ولا افتنان فى إرضاء الذوق ، والتى تكره النظام وتنفر منه ، وترى فى الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التى لا يكاد يدخلها الداخل حتى يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ؛ فالمتاع كثير ولكنه مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيأ ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أوكالملغى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات الاستقبال للسادة ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ، إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسى ، ويأكل أهل الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن يطرقهم طارق أو يلم بهم ضيف فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

فى البيت مقاعد وكراسى ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على هذه الحصر والأبسطة قد ألقيت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق أو أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها فى البيت منفعة وعملا .

والفرق ملغى أو كالملغى بين من فى الدار من الناس وما فى الدار من الحيوان على اختلافه ؛ فالدجاج مطلق يمضى حيث يشاء ويستقر هنا ثم يستقر هناك حاملا معه أقذاره وآثاره ، ولا يحمى منه إلا حجرة أو حجرتان ولا تحميان إلا فى مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل الدار إذا اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة أو الجاموسة أو ما إليهما ، يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون فى ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون فى مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى . هى الحياة السهلة اليسيرة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكتفت بما أخذت ، ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماتها يعملن وتعمل معهن ، يتحدثن وتشاركهن فى الحديث ، حتى أحسست أنى سأجد فى هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها نعيما وبؤساً . وقد صدق حسى ، فنعمت فى هذه الدار وشقيتُ : نعمت بهذه السذاجة التى ردتنى إلى شيء يشبه حياتى فى أقصى الريف ، وخلطتنى بأهل الدار كأنى واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت تلغيه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذه شيء كالموت ! لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعلى لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة ؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها — سواء أردت أم لم أرد — لنفسى خصما ، حاربتها وإن زعمت أنى كنت أدافع عنها ، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنى

لم آسف لما فاتنى من صحبتها فلم يكن من ذلك بدّ ! ولكن أى أسف وأى حزن وأى لوعة وحسرة ، وأى ندم يذيب القلب ويملأ النفس كآبة ويأساً هذا الذى كنت أجده إذا أصبحت وأمسيت وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب !!

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله فى بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت ؛ فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أسمعه فى الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعنينى مما يقرأ ! إنما هى أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا ، وأين هذا منى !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان لى أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب خديجة . ولقد سألت نفسى ألف مرة ومرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟ فليس فى هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التى يعرضها الطوافون فى أيام السوق أو فى يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها فى السوق ويمرون بها على الدور ، وليس لى فيها أرب ولا منفعة ، إنما هى قصص لا تعجبنى ولا تروقنى وسحر لا أحسنه ، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلا ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجد اللذة والمتاع حين آخذها في يدي أو حين أنظر إليها ؟ أحيل بيني وبينها آخر الدهر ؟ أقضي علي أن أرد كما كنت فلاحة من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل الآلي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان ؟ كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالا ، منها ما جلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج بها من المطبعة ! ولكن أين مني هذه الكتب ؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها ؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثتني نفسي بما لم تحدثني به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكني لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأننت إليه ثم صممت عليه تصميما . وأي بأس في أن أختلس الكتاب اختلاساً فأنظر فيه وقتاً طويلا أو قصيراً ، ثم أرده إلى مكانه لم يمسسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقة هذه ؟ أ إثم هذا الذي أنا مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلا ؟ والله يشهد ما سرقت ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسي منها حظاً ، وفيها خوف وإشفاق ،

وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلتهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبي ، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسي مأمناً لا أخشى أن يُعثر عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقي عليه نظرات طوالاً أو قصاراً تغريني به أو تصرفني عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف ولهذه القراءة لذة غيرت حياتي تغييراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب.

نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح المـــاء على سادتي في ليلة من هذه الليالي : سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسي واضطراباً ، ولولا أني أنفقت جهداً عنيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية ؛ فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان . والناس يهمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابنته من جوار المهندس الذي كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذي رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواطفي وأكرهت نفسي على التزام الأمن والهدوء ما اضطررت إلى الخدمة ، فلما أتيحت لي العزلة

أرسلت نفسى على سجيتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة . ولكن الصباح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجتُ من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسى فى هذه الدار . فقد خلا الجو لى فى المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بينى وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلمن بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر ويشفى نفسه بالانتقام ؟ ...

٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الخواطر فى نفسى وتختلف وتزدحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أجد لى متفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه وألح فى طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ؛ فأنا عاملة فى هذه الدار لا أجد من أهلها ما يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهده فيها .

وكنت أجهد نفسى أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً

ألتمس مخرجاً لى من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجتنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلا . وكثيراً ما سمعت سادتى يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً فى إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التى نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى فى أن يبادل موظفاً فى المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه. وكان التراضى قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعى وإلحاح ، وكان السعى متصلا فى أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وربته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة فى أقصى الصعيد ، وكانا يهيئان له فى أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكران ما يجب أن يشترى من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذى تعلم فى المدارس وتعود حياة الترف والنعيم ، والذى يتكلم الفرنسية ويتأنق فى اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء فى الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التى لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرص الخبز عليها رصاً فيخفى هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان

يصطنع هذه الأدوات التي يصطنعها المترفون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما معجبين به أشد الإعجاب فى قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفى ، فيبسمون صامتين ما أقام أبوهم ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمهم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم فى أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تتم بين سكينة وبينى مبادلة كهذه التى يراد أن تتم بين ابن هذه الدار المنفى فى أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطى المنفى فى أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكينة أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكينة ؟ وما الذى يزعجها عن منزلها هذا الذى تطمئن إليه وتسود فيه لا تكاد تذعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذى يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التى لا حظ لها من ترف والتى ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينة جنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادتى ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر، والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التى أسمو إليها حتى أقتحم فى سبيلها غمرات

وأقترف فى سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تقصى سكينة عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تتهيأ له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟! لن أجد فى تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسى ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباحت ما لم تكن تستبيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينة فأمرها ميسور . وإنما هى زيارة للبستانى وإغراء له ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينة من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتمس خادماً ، ويومئذ ...

وأما مخرجى أنا من هذه الدار التى أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن فى حاجة إلى ، وإنما قبلنى أهلها رفقاً بى وعطفاً على وإحساناً إلى ورعاية لعهد أمى . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنى إلى أن أتكلف الاستئذان فى الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجاً وأنبذ منها نبذاً . وإنى لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلأ قلبى حباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السذاجة التى كانوا يعيشون فيها والتى

كانت تصور لهم أمورهم كلها فى صورة الجد الذى لا يشبهه جد ، والتى لا يتحدث بها الناس فى هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى ويحبون الحياة التى لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التى أقبلوا بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شىء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبطئون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولهم حبّاً . وكان أهل الدار جميعاً ، وربما أولهم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حبّاً للعلم وإيثاراً للدرس وجدّاً فى التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفيهم العمل طول العام الدراسى فى القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشىء من النعيم . وإنما هى الكتب إذا أصبحوا، وهى الكتب إذا أمسوا ، وهى الكتب إذا آن لهم أن يقيلوا بعد الغداء . ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات فى غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات فى آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يجدون فى هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل فى تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذى تجرى به

ألسنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر فى الوعد بالنذور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولى .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل ، حتى لقد كان يغيظ أصحابه ويملأ قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملأ قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة فى أن يختلس الوقت من حين إلى حين وينتهز الفرصة التى يغيب فيها أبناؤه عن هذه الغرفة التى رصت فيها الكتب رصًّا فينسل إلى الغرفة انسلالاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التى نظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده فى تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسها مسًّا رفيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شىء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ فيه سطراً أو أسطراً يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغى للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغى من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسيغون ما لا يعرف

آباؤهم ولا يفهمون ولا يسيغون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبناؤه ببعض ما يقرءون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك متألماً محزوناً أو ثائراً مغضباً ، فتعزيه زوجه وتهدئه وتزعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر ويأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ، فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلال إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبي ، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت تملىء دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ، رديء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،

يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشتد اختصامهم فيه ، ثم ينتهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت معلوم . فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبين ما يخفيه شكله الدميم وطبعه الردىء وورقه الحقير وجلده المبتذل البالى ، من هذا السحر الذى خلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى التهالك عليه والتنافس فيه . وكثيراً ما التمست هذا الكتاب فلم أجده قريب المنال بين هذه الكتب المرصوصة المعروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . فلم يزدنى ذلك إلا كلفاً به وتتبعاً له وإلحاحاً فى البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لى ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجدنه ولأنظرن فيه ولأقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وليمتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من عمل ، فانسللت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت فى البحث غير قليـــل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغى . فياللبهجة ويااللغبطة ، وياللسعادة وياللرضا ! هذا الكتاب بين يدى دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق ردىء الطبع ، ولكن اسمه « ألف ليلة وليلة » . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضى فى القراءة، وأنا أنسى نفسى وأنسى مكانى . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح فى غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة التقديس ، وليمد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أسمائها وسطورها

ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يرانى أنظر فى كتاب ، وفى كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألنى ماذا أصنع ، وما أنا وهذه الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفى الكتاب الذى كنت أنظر فيه ، ولكنه قد أسرع فأخذه من يدى ، ثم زجرنى زجراً عنيفاً وطردنى من الغرفة طرداً .

على أنه لم يطل المقام فى هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفى يده هذا الكتاب فألقاه فى وجهها إلقاء ، واندفع فى غضب لا حد له وفى شتم لا ينتهى ساخطاً على زوجه المسكينة وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نذراً متصلة بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها فى غيظ عنيف مرة وفى حزن أليم مرة أخرى ، خيبة أمله فى هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين للعلم مؤثرين له متهالكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث ولهو ومجون ، وإذا هم ينفقون وقتهم فى قراءة هذا الهذيان . ومن يدرى ! لعلهم ينفقون وقتهم فى هذا أثناء إقامتهم فى القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله ليمضى أبناؤه فى هذا السخف وفى هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون وقتهم وجهدهم وجد أبيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .

ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليباً ، وما يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها منتصراً ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار ! وقد نغص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .

وعاد الفتيان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هى أنى طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقضيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنتهى إليه حيلة البستانى الذى ضوعف له الأجر .

٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملا يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم. ستعملين عملا مربحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعدين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سنى تعود إلى حيث أنت من العمر . ستعملين وستسعدين . . ! »

قالت ذلك وهى مضطربة أشد الاضطراب ، مبتهجة أشد الابتهاج ، يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتى حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجد والهزل ، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة . حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكتف زنوبة باضطرابها هى ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتنى وأنهضتنى وراقصتنى ودارت بى حول الغرفة دوراناً متصلا سريعاً حتى انتهت بى وبنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهى مندفعة فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالت إلى جنية وأصبحت الغرفة ميداناً لاضطرابها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطنى معها على الأرض وحين أفاقت منه بعد قليل . . .

هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتمس له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهى مبتهجة لى وهى مبتهجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدمت لهذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل ما لى من جمال الوجه ، واعتدال القد ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بحاجات الشبان المترفين . سيكون أجرها مضاعفاً ، أما أنا فسأسعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل ، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى خدم الدار . سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شهيقها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالى ، ثم انقضت على وضمتنى إليها ضما عنيفاً وهى تقول : « إنى لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعيم » .

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبئها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله فى حاجة إلى الحزم وفى حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبهها من هذا كله بشىء ، ولم أنبهها حين أصبحنا بأنى لم أذق النوم لحظة فى هذه الليلة الطويلة التى فرقت بين نفسين ، وإنما قضيت الليل كله يقظة ، أفكر فى أمس البعيد وأفكر فى اليوم ، وأفكر فى غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقت وما بقى لها أن تذوق من لهو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة تلائمها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرثى لها وأرثى لنفسى أيضاً : أرثى لها فى حياتها هذه الصغيرة الحقيرة التى خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرثى لنفسى من حياتى هذه المضطربة التى يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك فى أنه كان طويلا ، وليس من شك فى أنه كان ثقيلا لو فرغت له ، ولكنى شغلت عن الليل ببنات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التى لم تكد تحس أنى خلوت إلى نفسى حتى تراءت لى ، ثم دنت إلى ثم استقرت منى غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسى حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأجد له فى قلبى وقعاً لاذعاً حلواً معاً . صورتك هذه التى رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت أراها فى بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت

إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكانى منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك وأعزيك وأجتهد فى أن أفيض عليك السكينة وأشيع فى قلبك الأمن والهدوء .

ها أنت ذى تسعين إلى وتجلسين إلى جانبى ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفى ، وهذه يدى تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة الصامتة . وها أنا ذى أخلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدى تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه . ولكنك تنهضين وتذهبين . ثم تعودين لى بعد قليل واجمة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهدئة لك . وهذه الأشباح الحمراء تتراءى لنا كما كانت تتراءى لنا فى بيت العمدة قبل أن نأخذ فى هذا السفر الآثم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى وتمضى إليها ، وتستحيلى إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنتن أولاء تطفن بى وتضطربن من حولى وتستبقن إلى أذنى تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا ذى مروعة مفجعة ، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصيح ، وأذكر مكانى فى دارنا تلك فى أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذى أرى الينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذى أنهض خائفة مولهة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جاثم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلى أن تذهب والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظن هذه المرأة التى تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم فى ناحية من نواحى هذه الغرفة . لأوقظنها ولأقضين

معها بقية الليل فى الحديث . . . ولكنى لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسعى إلى أختى وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهى تلقى فى نفسى هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة : لاتوقظيها إنها تخيفنا ، وإن يقظتها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك ، أفنسيتنا إلى هذا الحد ؟ ! كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسى ، ولن أوقظ هذه المرأة التى تخيفكن . أقمن معى ، أطفن بى ، تحدثن إلى ، فمن يدرى ! لعلى أن أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن ، لعلى أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القانى الذى تكتسينه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن . . !

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إلىّ الهواء من بعيد فيبلغنى نحيلا ضئيلا ، ولكنه على ذلك يشيع فى سكون الليل كما يشيع الضوء فى الجو . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو منى شيئاً فشيئاً فيملؤنى أمناً ودعة وهدوءاً ، وحزناً معاً . إنه يردنى إلى اليقظة الخالصة التى تشعر بنفسها وتفكر فى نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتى فى روية وبصيرة واستعداد للاحتمال . . .

نعم ! إن صوتك ليملأ أذنى ، وإنه ليملأ قلبى ، وإنه ليغمر نفسى ، وإنى أفهم عنه ما يريد ، وإنى لأذكر أختى ومصرعها ، وإنى لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإنى لأعلم حق العلم أنى ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختى ، فناهضة بما كانت تنهض به أختى

من العمل ، فمنتهية بعد إلى شئ آخر غير الذى انتهت إليه أختى فى ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلى يثوب إلى ، وهذه قوتى ترد على ، وها أنا ذى أنتظر الصبح لأسعى إلى هذا المهندس وإن قلبى لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهى لمبتسم أجمل الابتسام .

٢٢

وأقبل سيدى الجديد علىّ مبتسما راضياً يحدق النظر فى وجهى تحديقاً طويلا ، ثم يفصل النظر إلى جسمى كله تفصيلا ، كأنه يمتحن متاعاً يريد أن يشتريه . ولو قد استطاع لنهض إلىّ فاختبرنى بيديه اختباراً وتعرفنى باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياء ، فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التى تجرد المرأة من ثيابها تجريداً ، والتى كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب ثائرة لها أشد الثورة .

ولكنى كنت أتمالك ما وسعنى الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى علىّ اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألنى عن اسمى ، وعن أهلى ، وعن أمرى كله ، فألفق له من ذلك ما ألفق ، وأزين له من ذلك ما أزين . وهو يسمع منى مصدقاً لى أو غير حافل بما يسمع ، إنما يريد أن يعرف صوتى ووقع حديثى . ثم هو يأمرنى أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعونى إليه . وقد هدأ اضطرابى وسكنت نفسى ، وعاودنى صوابى ، وأنا أتحدث إلى نفسى بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . !

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أنى سألقاه قائمة باسمة . أقبل إلى فى ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكد يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصى ماثلا فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شىء من الذعر ، فتراجع خطوات ثم قال فى صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعى قليلا قليلا : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت: لقد جاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغى لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما يدرينى ! لعله يحتاج إلى شىء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهدوء نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك فى خدمتى . وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد ، فلست أدرى ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات! قلت: فقد أرحت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ؛ فليأمر سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمرك أن تتبعيه . ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى أثره . . .

وصدق المسكين أنى كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبى واستمع إلى أحاديث نفسى لعرف أنى لم أكن أرقة فى انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها لملئ قلبه رعباً ولولى منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياى ، ولم يفكر إلا فىّ ، وما له وللأشباح الحمراء !

23 - ٢٣

وعدت إلى غرفتى بعد ساعة ، راضية عن نفسى كل الرضا ، مطمئنة إلى قوتى كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو فى ميدانه الذى اختاره هو ، وكانت بينى وبينه مقدمات النضال ، فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبتّ له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد فى شىء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل فى شىء من هذا عظيم عناء ، وإنما هو الابتسام المطمع المغرى ، والاحتشام الذى يفل العزم ويثبط الهمم ، ويبسط سلطان الحياء على النفس فإذا هى ترتد بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول ، ويحدق بها الخطر ، وتنتهى إلى الفصل فيما يكون بينى وبين هذا الشاب فإما ضعف واستئثار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من هذه الدار . ولكنى ملكت أمرى وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجل الفصل فى هذه الخصومة إلى أجل ظننه قريباً ورأيته بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ، وهو يقول : لا بأس ! إنك فى حاجة إلى التربية والتمرين .

ولم أكد أثوب إلى غرفتى وأغلق بابها من دونى إغلاقاً محكماً حتى تراءت لى أختى وهذه الظلال التى ترافقها ، كأنما كن ينتظرننى ليعلمن علمى وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد هممت أن

أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما أبيت . ولكن ماذا ؟ إنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمع فى وجوههن الشاحبة ابتسامة الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً . وكنت أظن أنى سأنتظر معهن مطلع الفجر ، سامرة كما كنت أسمر منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدى كأنه اللص ، ولكنى ألتمسهن من حولى فلا أرى لهن محضراً ولا مظهراً ، وألتمسهن فى نفسى فلا أظفر منهن بشيء . لقد غبن عن عينى وغبن عن نفسى ، وكأنهن أمرن الذكرى أن تتبعهن وتمضى إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلا إلى التفكير ، وأنا آوى إلى مضجعى وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ، ولكن للتعب سلطاناً هو باسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها ، وكادت توالى نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا فارقتنى أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتنى معك هذه الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بى شفيقات على . وما يمنعكن من ذلك وأنا عندما تردن ، لم أهن ولم أضعف . ولم أنهزم لهذا العدو الماكر القوى ! ليت شعرى ! أكنتن ترفقن بى ، وتشفقن على ، وتنصرفن عنى وتخلين بينى وبين النوم ، لو أنى خالفت عن أمركن واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذى كان يرسله إلى سيدى بالعين واليد واللسان ؟ !

٢٤

على أن الأمر بين سيدى وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر ، وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أجل ، وللصبر أمد ينتهى إليه ، وللمطاولة غاية تقف عندها ، والمياسرة خير إلا أن تستحيل إلى ضعف وإذعان . وما ينبغى لسيدى أن يظهر مظهر الضعيف المذعن لخادم مثلى ليس لها حول ولا طول ، وهى لا تأوى إلى ركن شديد ، ولا تعتز بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه ، وإنما هى كلمة منه تبقيها فى داره عزيزة مكرمة أو تخرجها من هذه الدار دليله مشردة . وقد علق سيدى هذه الكلمة فى طرف لسانه أياماً وأياماً ، يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفتيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذى يحملها إلى رُدّتْ إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان استقراراً وأطبقت شفتاه من دونها إطباقاً .

ومُدت لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ربما يخرج سيدى لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعونى إلى ما كان يدعونى إليه فى هذا الإلحاح المتصل ، المضحك المحزن ، الذى يفسد على الرجل أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه السيد وذليلاً كأنه العبد ، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات الجوفاء التى يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً ، ويملؤها المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء ، وتصور دائماً نقيض معانيها الظاهرة ، وتعبر دائماً عما لم يُرِد صاحبها إليه ، ويملأ نظراته بهذا الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الذليل حيناً آخر ، ويجعله يدور حول غايته التى يشتهيها وأمنيته التى يبتغيها ، كما يدور العابد حول

الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يبتغى ثغرة ينسل منها إليه !

نعم ! كذلك كنت ألقى سيدى مع الصبح باسمة مشرقة الوجه ، أحمل إليه قدح الشاى وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد كان سيدى يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ، فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوعيد وفيها الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن ؛ يا لقوة النساء ! إنى لأقبل عليه بالشاى والفاكهة والتحية كأنى لا أرى شيئاً ، ولا أحس شيئاً ، ولا أفهم شيئاً ، ثم أنصرف عنه وفى نفسى ما فيها من الرضا ، وفى قلبي ما فيه من الإشفاق ؛ فقد كنت راضية عن نفسى وساخطة عليها ، وقد كنت شامتة فى سيدى ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسى ما أنا فيه من الإطماع والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختى . وكنت أنكر على نفسى هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ، وإمعاناً فى الإثم . وقد كنت أرى أنى قد خلقت لنفسى جواً من الرذيلة أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأتنفس هواءه المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذى أكيده ؟ وما هذا المكر الذى أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذى أملأ به رأسى وقلبى ؟ ! أصبح فأفكر فى هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنغص عليه يومه ، وأمسى فأفكر فى هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأؤرق عليه ليله ؛ وأنا فيما بين ذلك لا أنفك أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ لما هو أطهر منه وأنقى ، وأكثر من هذا وذاك أن يستسلم هذا الشاب

لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما يبث حوله من شباك ، ويتعلق بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع أن يلتمسهن متى شاء وكيف شاء . وأي شيء أيسر من أن يرسل بستانيه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا ينقضي اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتمسن العمل في المدينة قد نشأن فيها أو انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام؛ ولكن نفس الإنسان ضعيفة حقًّا ، وقوية حقًّا . لقد أقبلتْ عليّ نفس سيدي كما أقبلت على غيري تلتمس عندي الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت مني امتناعاً عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ، أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بي أنا ، تريد أن تقهرني وتغلبني على أمري وتنتصر علي ، وتظفر مني بما تريد .

فسيدي لا يطلب عندي الآن حبًّا ولا لذة ولا إثماً ، وإنما يطلب إليّ خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم . ومن يدري ! لعله إنما يؤجل إقصائي عن داره حتى يتم له النصر ، ويتحقق له الفوز ، فيخرجني ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت لسلطانه ! ويكفي أن يخطر لي هذا الخاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ، ملحة في الخصام ، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت عن أختي وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدوًّا يريد أن يقهرني ، ولابد من أن أقهره ؛ وسيداً يريد أن يبسط سلطانه عليّ ، ولابد أن أبسط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئة في ظاهر الأمر مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً في حقيقة الأمر . ألقى سيدي باسمة ويلقاني باسماً ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام

إلى عبوس ، والرضا إلى سخط . وإذا هو يدعو فآبى ، ويلح فى الدعاء فألح فى الإباء ، ويغرى فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فأستخف بالنذير ، ويستعطف فأقسو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! - ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ وماذا أجد ؟ هذا سيدى ماثلا بين يدى يتلطف ويترفق ثم يستطعف ويستجدى ، ثم هذا هو جاثياً بين يدى كأنه يتقدم إلىّ بالصلاة ، ثم هذا هو باكياً فى صمت ، ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وها أنا ذى أكاد أضعف ويكاد يأخذنى الإشفاق لولا أن أجمع قوتى كلها ونفسى كلها وأدعو إلىّ أختى وظلالها الحمراء ألتمس منهن العون ، وأستمدهن قوة إلى قوة .

وأمضى بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينتهى الأمر بيننا إلى شيء يشبه الموادعة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسى ، وإذا هو قد أخلص لى ولنفسه ، وإذا نحن نتحدث فى هدوء وأمن واستقرار . فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتماله ، وأما أنا فأهوّن عليه الأمر مخلصة صادقة وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب من الخليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفترق ، وإذا هو ينصرف عنى على ألا يرانى فى الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التى تملؤها المطاولة والمحاولة ، وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير من الإياب . فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء . أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنى القوى أن يبلغ منى ما بلغ من أمثالى ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعته مرارة الهزيمة وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟!

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أتهيأ للرحيل مزمعة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم فى المدينة ولا أعود إلى أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التى تمضى إلى الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وها أنا ذى قد حزمت أمرى وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستانى موكل بالدار يمنعنى أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب ، وينبئنى بأن سيده ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق ، وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليمسكنى فى الدار حتى يعود . وإذاً فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفترق . وإذاً فلم يكن هادئاً حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ماكراً مخادعاً . ومن يدرى ! لعله كان صادق العزم خالص الرأى ، فلما انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستيئس من ذلك الخاطر الذى كان يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغرينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع ! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب فىّ أرباً . إنه يشتهينى كما اشتهى غيرى من الفتيات ، وإن امتناعى عليه قد زاده حرصاً علىّ وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسى فكثيراً ما سألتها : أترى شهوته قد استحالت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة أنه لا يحبنى ، بل لم يحبنى قط ، وأنه لا يشتهينى ، ولعله يزدرينى ، وإنما يريد أن يقهر فىّ عدواً متمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلألقين البأس بالبأس ، ولألقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الهرب لو أنى رغبت فى الهرب أو فكرت فيه ،

لكني كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سرًّا ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يدرى ! لعلى لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لى ظاهراً جليًّا . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله فى الدار لا يسمر ولا يلقى أصحابه . ومن يدرى ! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإيثاره للعزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقانى كما انصرف عنى مبتسما فى كآبة ، وهو يسألنى : أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدتُ ؟ !

— أجل ! فارقتنى على ألا تلقانى ، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلى بينى وبين الطريق .

— ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبك الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك ، كاره لفراقك ؛ ومن يدرى ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذى سماك لى ، وهو الذى أنبأنى بمكانك ، وهو الذى جاء بك إلى هذه الدار . إنى إذن لأحمق ؛ لقد خدعنى هذا البستانى ، ولقد اتخذ دارى مسرحاً للهوه وهواه . فأنت إذن لا تعرضين عنى ولا تمتنعين علىّ إيثاراً للشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلى على هذه الدار . وفى سبيل من ذهب الشرف ؟ وفى سبيل من ضاع العفاف ؟ فى سبيل هذا البستانى الذى تهوينه ، وما أشك فى أنه يهواك .

وكان هادئاً مطمئنًّا حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام . ولكنه لم يكد يمضى فى حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقه شيئاً فشيئاً ، ولم يكد ينتهى إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرا مستطيراً يتمثل إنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائياً متهيئاً للبطش لا يكاد يمتنع عنه

إلا فى جهد شديد .

على أنى لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلىّ من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة مطمئنة ، وقلت له فى هدوء : لا بأس عليك ! خلٍّ بينى وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أتجمعنى بالبستانى جامعة ، أو تصلنى به صلة . فلئن خليت بينى وبين الطريق لآخذن أول قطار ، ولولا أن أشق على مولاى وأكلفه مالا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعنى فى القطار وأن يرسلنى إلى أى مدينة شاء ، فإنى لا أبتغى إلا أن أعيش ، فى حيث آمن على شرفى هذا الذى لم يذهب ، وعلى عفافى هذا الذى لم يضع وإن ظن سيدى بى الظنون .

قال فى غيظ يشبه الرضا وفى سخرية تشبه الجدّ : ما تزالين تذكرين السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلىّ هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدراداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تذعن إلا إذا رغبت فى الإذعان . ومن أجل ذلك ارتدّ عنى كما هجم على ، واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتوياً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التى تفسد حياة العاشقين وتزينها فى وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسى منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعاً ، ورُدّ كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجنى من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أفارقه جهرةً ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبنى حيث أكون من الأرض .

فليس عندى شك الآن فى أن سيدى لا يشتهينى ولا يبتغى أن يظهر علىّ وينتصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطمع فى كل شىء ويرضى بأقل شىء ، بل يرضى بلا شىء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما فى ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضنى إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنبىّ أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أراغب هو فى الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت فى ذلك الفضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا الينبوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك فى هذا القلب الذى يضطرب بين جنبى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبنى ولا يستطيع عنى سلواً . ما خطب هذا القلب ؟ أمحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى ففيم المقاومة ، وفيم العذاب ، وفيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية ففيم البقاء فى هذه الدار ، وفيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . . فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزمى أمرك فقد آن لك أن تعزميه ، أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

٢٥

وقد فكرت سعاد ، وما كانت فى حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التى تحياها امتلاء ، وامتزجا بها امتزاجاً ، حتى أصبحت جزءاً منهما أو أصبحا جزأين منها ، وحتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة فى هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور مرة كأنها النفور الذى لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى فى الحالين شىء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها فى يقظة أو نوم ، إنما هى مستصحبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد ذاد عنها كل شىء وكل إنسان ، وذاد عنها حتى أختها تلك العزيزة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شىء ، وصرف إليها عن كل شىء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير فى الصراع ، وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والاستسلام الذى لا رجوع فيه .

ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

فتصرعه ، وتغالب العشق فيها فتغلبه ، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام ! حتى إذا كادت تنتهى منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيفة ، ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المتهالكة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتؤجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؛ فهو محب يلقى من الحب عناء وبلاء ، ويجد من آلامه مثل ما أجد . ولكن كبرياءه قد رُدت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى فى غير إلحاح ، ويأمل فى غير إلحاف ، كأنما أحس فى حبه شيئاً من حياء فآثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فآثر الحرمان فى شىء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل علىّ ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شىء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل علىّ ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى فى صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وآن لى أن أستريح ! فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والتى تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر فى نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعيد علىّ حديثه فأسأله عما يريد ، فيقول : سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيب ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجد شيئاً من الدوار يكاد يبلغ بى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر فى صمت متصل ، وإذا الفتى يدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفىّ فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة فى الصمت ودموعى

ماضية فى الانهمار ، والفتى قائم بمكانه منى فى هدوء لم أعهده ، ينظر إلىّ صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلا وهو يقول فى صوت شاحب : ماذا أرى! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا فى صمتى ، وتمضى دموعى فى الانهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمعه يدعونى فى صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممتلئاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراق قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفترق . ستصحبينى إلى القاهرة ، ولن ينالك منى إلا ما تحبين . هلم فامضى فى شؤونك كما تعودت أن تفعلى ، هيئى من أمرك وأمرى للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل علىّ هادئاً رزين الخطا . وقد أنكرت من نفسى كل شىء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه ، ولكنى لا أجد من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة رضاً عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدمى ، ولكنه فى الوقت نفسه رضاً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث ، ومضت فى حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجىء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد فى هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلىّ منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد الذى من الخادم

النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هى حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التى أنبأنى فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإنى لأدعو أختى حين أخلو إلى نفسى فى النهار وحين أخلو إلى نفسى فى الليل فلا تستجيب لى صورتها التى كنت أعرفها فى المدينة باسمة مشرقة ، ولا تستجيب لى صورتها التى عرفتها فى بيت العمدة واجمة هائمة ، ولا تستجيب لى صورتها التى كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لى صورة من هذه الصور ، وإنما هى ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتى المضيئة الهادئة ، الحزينة فى غير تكلف لحزن أوسرور.

وأنتقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه فى دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا براً وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلىّ كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفانى لنفسه ، واختصنى بوده ، وجعل يشركنى فى كثير من أمره .

يا لله ! إنى لأحس شبهاً بين هذه الحياة التى أحياها مع هذا الشاب فى دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التى كنت أحياها مع خديجة فى بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من النقاء والطهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التى تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغنى ، وهذه الخادم البائسة التى طالما طمعت فيها نفسه الطامحة ، وأغرته بها عواطفه الجامحة ، والتى طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتغى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشىء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم تستطيع أن تقهره . وأقاما معاً فى شىء من الموادعة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا تستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله ومطامعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هى من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد فى حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسى أم أصدقها ؟ أأصارحها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبى كل الاطمئنان ، واغتبطت بها نفسى أشد الاغتباط ، وارتاح إليها ضميرى هذا المتعب المعذب الذى كان فى حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبى مطمئناً ونفسى مغتبطة وضميرى مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور فى مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه الموادعة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغى أن تتصل ؟ ألم أجد فى أعماق ضميرى شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس فى دخيلة نفسى أن حياء هذا الشاب قد يكون لوناً من الصد وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسى أشد الإنكار ولمتها فيه أعنف اللوم ، وما أشك فى أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولام نفسه فى مثل ما كنت ألوم نفسى فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلا على نفسه وعلى نفسى أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التى ألفها فى الأيام الأخيرة من حياته فى الأقاليم .

فكان يغدو إلى عمله مصبحاً ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلمون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفى القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه فى لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه فى الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبويه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان فى أثناء ذلك ربما دعانى إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع منى ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا فى كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفه غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعانى إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنى كنت أعتذر باسمة ؛ فما ينبغى لمثلى أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلى من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بينى وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذى يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حبًّا ثائراً أكتمه على ما كان يكلفني كتمانه من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغير من أمرنا كل شيء ، ألقاه فى غير جهد وفى غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذى تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلىّ فى هذا الأمر كما كان يتحدث إلى فى أمر المدينة وفى أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهى إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذى اختصمنا فيه وقتاً طويلا وسكتنا عنه وقتاً طويلا ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلني ساعة . أما ينبغى أن تنتهى هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنى لم أردّ عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتى استأنف حديثه فى صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين عنى اليوم ما أريد ، كما فهمت عنى من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنى لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم ، وإنى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتمد على كرسى كان منى غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لى قط ، وما كان ينبغى أن تخطر لى ؛ فقد أقلمت على كثير من خطير الأمر وتصورت فى نفسى كثيراً من جليل .

العمل ، ولكنى احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجنى الحب كما لم يخرجنى البغض، ولم يخرجنى الأمل كما لم يخرجنى اليأس ، عن طورى فى لحظة من اللحظات . لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغى العبث فيه .

قال وهو يضحك : فإنك تظنين أنى أعبث ، وتقدرين ما بينك وبينى من الفرق الاجتماعي متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحى نفسك إذن من كل هذه الخواطر ؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى لست سيداً كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينى إلى آخر الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتى سبقنك إلى خدمتى ، ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين فى نفسى ألواناً أخرى من الدهش .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، ولبثت ماثلة ذاهلة لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعى شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال فى صوت هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت فى صوت ليس أقل من صوته هدوءاً ولا حزناً : فإن سيدى يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين فى أبوى ! فإنى قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمرى ، وما أشك فى أنهما لن يمتنعا على ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ، ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل . قال : فمن حق عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً بيننا مستحيل ، وإنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبينا رضا إلا فى الزواج . قلت : فقد قضى على قلبينا ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذى قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتى يحتبس ، ودمعى ينطلق ، وإنى لأرانى أهم بالانصراف ، وإنى لأراه قد نهض من مجلسه متثاقلا وسعى إلى متباطئاً حتى ردنى فى هدوء ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلىّ كيف أملك نفسى ! ألا تفكرين فى تلك الثورة الجامحة التى شقيت بها وقتاً طويلا .

أنبئينى من ذا الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التى قضت علينا هذا العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه الموادعة الهادئة التى لا ينبغى أن نطمع فى خير منها فليس فى الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إلىّ . قال : فإن حديثك لم يزدد إلا غموضاً . قلت : فخير لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً ليحتفظ بهدوئه : فإنى أقسم لك أنى لم أعد أستطيع صبراً على هذه الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن ما الذى نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أى قضاء ؟ ألم يأن لك أن تفصحى ، ألم يأن لى أن أفهم ، ألم يأن لهذه الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إنى لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر فى وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلا واضطربت يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت : فاذَنْ لى إذاً بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسى الذى كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتى فى صوت هادئ مطرد لا يبله الدمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب إنما ألقيت عليه قصتى كأنى أتحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب .

وما أدرى أطال الوقت الذى ألقيت فيه قصتى أم قصر ، ولكنى أعلم أنى سمعتنى أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذى

يغمرنا ؟ أتستطيع أن تنظر إلىّ ؟! وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ، ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلىّ من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أتطيقين أن تنظرى إلى ؟ أما زلت تضمرين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التى انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عينها دموعاً . ثم أسمعه بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ؛ فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برىء من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فينتزعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلا مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر على خدى دمعتان حارتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادى فى ذلك الفضاء العريض ! !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤

دعاء الكروان.. رواية خالدة في تاريخ الأدب العربى، فقد أثَّرت مأساة آمنة وهَنَادِى - فى هذه الرواية - فى وجدان أجيالٍ وأجيالٍ.. فالرواية وإنْ كانت عن حياة البَدْو الرُّحَّل داخل الريف المصرى فإن مأساة هنادى هى مأساة الإنسان فى كل مكان حين تقهره مقدرات الظروف الطاغية.. فيجتاحه حُكْم المجتمع غير المؤهل لإصدار هذا الحُكْم بالتبعية.

رواية خالدة.. يمكن أن تقرأها أكثر من مرة.. ويكفى أنها بقلم أديب العرب الدكتور طه حسين.

دار المعارف

٠١٤٢١٣/٠١